اليهود
أنثروبولوجيّاً

عنوان الكتاب: اليهود أنثروبولوجياً
المؤلف : الدكتور جمال حمدان
اختيار وتقديم : ديب علي حسن
سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/192/ كانون الأول/ 2023
الناشر: اتحاد الكتاب العرب
الإخراج الفني: وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
ttp://www.awu.syh

د. جمال حمدان

اليهود
أنثروبولوجيّاً

اختيار وتقديم:
ديب علي حسن

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (192)

لماذا هذا الكتاب الآن ..؟

ديب علي حسن..

العدوان الصهيوني الغربي المستمر على غزة وكل فلسطين لم يكن ليجد القدرة على الاستمرار لولا التواطؤ الغربي معه والدعم المباشر بلا حدود من قبل واشنطن ومن يدور في فلكها.

وكان بايدن واضحاً حد الفجور حين قال لم تكن موجودة إسرائيل لأوجدناها وبالتالي هذا يؤكد المؤكد أن الكيان الصهيوني اختراع غربي أوجد ليكون رأس حربة ضد المنطقة وتطلب اختراع ما يسمى حق العودة أو الحق التاريخي وبالتالي ما أسموه أرض الميعاد ومن أجل هذا أيضاً لا بد من اختراع شعب يسمى اليهود.

صحيح أن اليهودية موجودة تاريخياً كديانة وليس كشعب .. واكذوبة العرق الصافي وشعب الله المختار وغيرها من مصطلحات االتضليل يفندها هذا الكتاب المهم الذي وضعه العالم المصري جمال حمدان ودفع حياته ثمناً له.

جمال حمدان

من مواليد 1928م - توفى 1993م

وهو أحد أعلام الجغرافيا . اسمه بالكامل جمال محمود صالح حمدان، ولد في قرية ناي بمحافظة القليوبية.

ترى العديد من الدراسات أن ما كتبه جمال حمدان قد نال بعد وفاته بعضاً من الاهتمام الذي يستحقه، إلا أن المهتمين بفكر جمال حمدان صبوا جهدهم على شرح وتوضيح عبقريته الجغرافية، متجاهلين في ذلك ألمع ما في فكر حمدان، وهو قدرته على التفكير الإستراتيجي حيث لم تكن الجغرافيا لديه الا رؤية إستراتيجية متكاملة للمقومات الكلية لكل تكوين جغرافي وبشرى وحضاري ورؤية للتكوينات وعوامل قوتها وضعفها، وهو لم يتوقف عند تحليل الأحداث الآنية أو الظواهر الجزئية، وإنما سعى إلى وضعها في سياق أعم وأشمل وذي بعد مستقبلي أيضاً. ولذا فإن جمال حمدان، عاني مثل أنداده من كبار المفكرين الإستراتيجيين في العالم، من عدم قدرة المجتمع المحيط بهم على استيعاب ما ينتجونه، إذ إنه غالباً ما يكون رؤية سابقة لعصرها بسنوات، وهنا يصبح عنصر الزمن هو الفيصل للحكم على مدى عبقرية هؤلاء الإستراتيجيون.

اليهود تحت المجهر أنثروبولوجياً

كان جمال حمدان يُشكك في أن اليهود الحاليين هم أحفاد بني إسرائيل الذين خرجوا من فلسطين خلال حقب ما قبل الميلاد، وأثبت في كتابه «اليهود أنثروبولوجياً» الصادر في عام 1967، بالأدلة العملية أن اليهود المعاصرين الذين يدعون أنهم ينتمون إلى فلسطين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما ينتمي هؤلاء إلى إمبراطورية «الخزر التترية» التي قامت بين «بحر قزوين» و«البحر الأسود»، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي، وهو ما أكده بعد ذلك بعشر سنوات «آرثر كوستلر» مؤلف كتاب القبيلة الثالثة عشرة الذي صدر عام 1976.

يعد جمال حمدان واحداً من قلة محدودة للغاية من المثقفين الذين نجحوا في حل المعادلة الصعبة المتمثلة في توظيف أبحاثهم ودراساتهم من أجل خدمة قضايا الأمة، حيث خاض من خلال رؤية إستراتيجية واضحة المعالم معركة شرسة لتفنيد الأسس الواهية التي قام عليها المشروع الصهيوني في فلسطين.

إذا كان الباحث المصري الدكتور عبد الوهاب المسيري قد نجح من خلال جهد علمي ضخم في تفكيك الأسس الفكرية للصهيونية، فإن جمال حمدان كان سباقاً في هدم

المقــولات الإنثروبولوجيــة الــتي تعــد أهــم أســس المشــروع الصـهيوني، حيـث أثبـت أن إسـرائيل - كدولـة - ظـاهرة استعمارية صرفة، قامت على اغتصاب غزاة أجانب لأرض لا علاقة لهم بها دينياً أو تاريخياً أو جنسياً، مشيراً إلى أن هناك «يهوديين» في التاريخ، قدامى ومحدثين، ليس بينهما أي صلة أنثروبولوجية، ذلك أن يهود «فلسطين التوراة» تعرضوا بعد الخروج لظاهرتين أساسيتين طوال 20 قرناً من الشتات في المهجر: خروج أعداد ضخمة منهم بالتحول إلى غير اليهودية، ودخول أفواج لا تقل ضخامة في اليهودية من كل أجناس المهجر، وأقترن هذا بتزاوج واختلاط دموي بعيد المدى، انتهى بالجسم الأساسي من اليهود المحدثين إلى أن يكونوا شيئاً مختلفاً كلية عن اليهود القدامى.

في وقت كان الصهاينة يروجون لأنفسهم كأصحاب مشروع حضاري ديمقراطي وسط محيط عربي إسلامي متخلف، لم تخدع تلك القشرة الديمقراطية الصهيونية المضللة عقلية لامعة كجمال حمدان، كما أنه لم يستسلم للأصوات العربية الزاعقة التي لا تجيد سوى الصراخ والعويل، واستطاع من خلال أدواته البحثية المحكمة أن يفضح حقيقة إسرائيل، مؤكداً «أن اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية بأي

مفهوم سياسي سليم كما يعرف كل عالم سياسي، ورغم أن اليهود ليسوا عنصراً جنسياً في أي معنى، بل" متحف" حي لكل أخلاط الأجناس في العالم كما يدرك كل أنثروبولوجي، فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة مدعية في دولة مصطنعة مقتطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساساً".

أدرك حمدان مبكرا من خلال تحليل متعمق للظروف التي أحاطت بقيام المشروع الصهيوني أن «الأمن» يمثل المشكلة المحورية لهذا الكيان اللقيط، واعتبر أن وجود إسرائيل رهن بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة، مشيراً إلى أنها قامت ولن تبقى -وهذا تدركه جيداً - إلا بالدم والحديد والنار.

ولذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها وحياتها، ولذا أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها.

حدد جمال حمدان الوظيفة التي من أجلها أوجد الاستعمار العالمي هذا الكيان اللقيط، بالاشتراك مع الصهيونية العالمية، وهي ان تصبح قاعدة متكاملة آمنة عسكرياً، ورأس جسر ثابت استراتيجياً، ووكيل عام اقتصادياً، أو عميل خاص احتكارياً، وهي في كل أولئك

تمثل فاصلاً أرضياً يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها وإسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفاً مزمناً في مواردها. وتشير الدراسات أيضا إلى أنه قضى ثلاثين عاماً منزوياً في شقته الضيقة، ينقب ويحلل ويعيد تركيب الوقائع والبديهيات، وعندما مات بشكل مأساوي، خرج من يتحدث عن قدرة خارقة لحمدان على التفرغ للبحث والتأليف بعيداً عن مغريات الحياة، كما لو كان هذا الانزواء قراراً اختياريا وليس عزلة فرضت عليه لمواقفه الوطنية الصلبة، وعدم قدرة المؤسسات الفكرية والمثقفين العرب على التعاطي مع أفكاره التي كانت سابقة لزمانها بسنوات.

حظي جمال حمدان بالتكريم داخل مصر وخارجها:

- جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة 1986م - مصر
- جائزة التقدم العلمي سنة 1992م - الكويت
- جائزة الدولة التشجيعية في العلوم الاجتماعية عام 1959م - مصر
- وسام العلوم من الطبقة الأولى عن كتاب «شخصية مصر» عام 1988م.

- جائزة شخصية ضمن جوائز معرض القاهرة الدولي للكتاب لعام 2020

وفاته

عثر على جثته والنصف الأسفل منها محروقاً، واعتقد الجميع أن د. حمدان مات متأثراً بالحروق، ولكن د. يوسف الجندي مفتش الصحة بالجيزة أثبت في تقريره أن الفقيد لم يمت مختنقاً بالغاز، كما أن الحروق ليست سبباً في وفاته، لأنها لم تصل لدرجة إحداث الوفاة.

اكتشف المقربون من د. حمدان اختفاء مسودات بعض الكتب التي كان بصدد الانتهاء من تأليفها، وعلى رأسها كتابه عن اليهودية والصهيونية ويقع في ألف صفحة وكان من المفروض أن يأخذه ناشره يوسف عبد الرحمن يوم الأحد والكتاب الثاني: العالم الإسلامي المعاصر وله كتاب قديم عن العالم الإسلامي كتبه سنة 1965 ثم عاد وأكمله وتوسع فيه بعد ذلك لدرجة أنه أصبح كتاباً جديداً. والكتاب الثالث: عن علم الجغرافيا، مع العلم أن النار التي اندلعت في الشقة لم تصل لكتب وأوراق د. حمدان، مما يعني اختفاء هذه المسودات بفعل فاعل وحتى هذه اللحظة لم يعلم أحد سبب

الوفاة ولا أين اختفت مسودات الكتب التي كانت تتحدث عن اليهود. ومما يؤكد حتمية قتله ما رواه أشقائه عبد العظيم حمدان وفوزية حمدان أن الطباخ الذي كان يطبخ له فوجئنا بأن قدمه انكسرت وأنه راح بلده ولم نعد نعرف له مكاناً. وأمر آخر أن جارة كانت تسكن في البيت الذي يسكن فيه جمال حمدان قالت لنا إن هناك رجلاً وامرأة خواجات، سكنوا في الشقة الموجودة فوق شقته شهرين ونصف قبل اغتياله ثم اختفيا بعد قتله وقد فجّر رئيس المخابرات السابق أمين هويدي مفاجأة من العيار الثقيل، حول الكيفية التي مات بها جمال حمدان، وأكد هويدي أن لديه ما يثبت أن الموساد الإسرائيلي هو الذي قتل حمدان.

ولقد تعددت أفكار جمال حمدان في المجال الجيوبوليتيكي حيث أسس لعلم الجيوبوليتيكا المصري والعربي.

من مؤلفاته

ترك جمال حمدان 39 كتاباً و79 بحثاً ومقالة، أشهرها كتاب شخصية مصر دراسة في عبقرية المكان.

- دراسات في العالم العربي، القاهرة، 1958

- أنماط من البيئات، القاهرة، 1958
- دراسة في جغرافيا المدن، القاهرة، 1958
- المدينة العربية، القاهرة، 1964
- بترول العرب، القاهرة، 1964
- الاستعمار والتحرير في العالم العربي، القاهرة، 1964
- اليهود أنثروبولوجياً، كتاب الهلال، 1967
- شخصية مصر، كتاب الهلال، 1967
- إستراتيجية الاستعمار والتحرير، القاهرة، 1968
- مقدمة كتاب القاهرة لديزموند ستيوارت، ترجمة يحيى حقي، 1969
- العالم الإسلامي المعاصر، القاهرة 1971
- بين أوروبا وآسيا، دراسة في النظائر الجغرافية، القاهرة، 1972
- الجمهورية العربية الليبية، دراسة في الجغرافيا السياسية، القاهرة، 1973
- أكتوبر في الإستراتيجية العالمية، القاهرة، 1974
- قناة السويس، القاهرة، 1975
- أفريقيا الجديدة، القاهرة، 1975
- موسوعة شخصية مصر: دراسة في عبقرية المكان 4 أجزاء، القاهرة، 1975 - 1984.

خلاصة القول:

هذا الكتاب يدل على ضرورة البحث في التاريخ وتقديم الإضاءات على أضاليل المغالطات التي يريدونها أن تبقى حقيقة .. علينا إذن مواجهة عدونا بالعلم كما بالسلاح ..والدول التي اخترعت كذبة الشعب اليهودي يجب أن تعرف أن هناك من يملك أدوات البحث العلمي وهو قادر على تفكيك مزاعمها.. وفي عصر التواصل الاجتماعي والضخ الإعلامي الكبير من الضرورة بمكان أن يصل هذا الكتاب إلى الجميع.

اليهود
أنثروبولوجيا

"إن العرب واليهود أبناء عم من الناحية العنصرية". بهذه الجملة الخطيرة وبهذا الجزم القاطع يخاطب فيصل بن الحسين، الهاشمي الذي سيصبح ملكاً على العراق فيما بعد، يخاطب القاضي الأمريكي اليهودي فيلكس فرانكفورتر في 1919. وهو بعد أن يضيف إلى قولته التشابه فيما تحمله العرب واليهود من اضطهادات ومظالم وفيما تمكنوا من القيام به في طريق تحقيق أهدافهم القومية، يرتب على تلك المقدمة نتيجة سياسية تتفق معها فيما يبدو له وهي "أننا سنرحب" باليهود ترحيباً قلبياً في عودتهم إلى البلاد... وهناك مجال في سورية يتسع لنا جميعاً". ويعود نفس المتحدث إلى نفس الفكرة ليؤكدها في مؤتمر الصلح بباريس في نفس العام فيعلن أن "هناك صلات وثيقة من القرابة والدم بين العرب واليهود، كما أنه ليس ثمة تعارض واضح في الصفات المميزة للشعبين".

وبعد نحو نصف قرن من هذه التصريحات التي تصدر على مستوى القيادة السياسية ولكنها تتكلم، أو تسمح لنفسها أن تتكلم، كما لو بلسان الأنثروبولوجيين تعود نفس النغمة لترتفع على نفس المستوى وبنفس اللسان،

حين أعلن السعودي فيصل أثناء زيارته للولايات المتحدة في العام الأخير أنه لا يكن شيئاً ضد اليهود (يقصد تمييزاً لهم عن الصهيونيين) "لأننا أبناء عمومة في الدم". وهذا حسين الأردن آخر الهاشميين يأتي من بعده ليعلن أخيراً جداً أن العرب واليهود عاشوا مراحل طويلة في التاريخ جنباً إلى جنب وفي صداقة وتعاون كأقارب وجيران..

عميقة إذن هذه الفكرة، فكرة قرابة الدم بين العرب واليهود، ومنتشرة متفشية هي إذن بين الكثيرين لا في الخارج فحسب ولكن بين العرب أنفسهم، بل وعلى مستوى قياداتهم، بغض النظر عن كونها قيادات رجعية دعية فرضت أو فرضت نفسها عليهم. ولا جدال أن لهذه الفكرة نتائجها وتخريجاتها السياسية التي يمكن أن تترتب عليها، كما فعل فيصل بن الحسين في الواقع حين رحب باليهود في سورية في النص السابق!.

فرغم أن من الثابت المقرر في القانون الدولي أن ترك شعب لوطنه آلافاً سحيقة من السنين لا يمكن أن يحرمه كل حق في المطالبة بالعودة إليه الآن، ورغم أن الفقهاء الدوليين يسخرون من مجرد فكرة إعادة تشكيل الخريطة السياسية للعالم على أساس غزوات وهجرات وتوزيعات الماضي الغابر، الأمر الذي يمكن أن يقلب صورة الدنيا رأساً على عقب بشكل ساخر بل سخيف لا يتصور، نقول رغم هذا كله فإن فكرة قرابة العرب واليهود في الدم قد يمكن أن تلقي بعض ظلال على قضيتنا المصيرية الأولى في فلسطين، وقد يمكن أن تفتح باباً للحلول الخاطئة أو الخائنة، سيئة النية أو ساذجة النية.

وليس هذا مجرد استدلال أكاديمي أو إسقاط منطقي، وإنما هو بالفعل ما نجده في أكثر من دائرة من الدوائر العربية وغير العربية. فليس بعيداً مشروع الملك عبد الله، الذي اقترحه بنفسه على بريطانيا حلاً لمشكلة فلسطين في الأربعينات، من إنشاء "مملكة سامية" يكون هو على رأسها ويكون لليهود فيها حكمهم الذاتي! وفي السنوات الأخيرة ترددت فكرة "الاتحاد الفيدرالي السامي" بين بعض اليهود من صهيونيين وغير صهيونيين وضد صهيونيين. ولعلنا أن نكتفي منها هنا بذكر مشروع الفريد ليلينتال في كتابه الأخير The Other Side of the Coin الذي يقترح فيه أن يعود الصهيونيون الإسرائيليون الذين من أصل أوربي إلى أوربا، ويبقى الإسرائيليون الذين هم من أصل شرقي في فلسطين، وذلك مع عودة عرب فلسطين إليها ليعيشوا معهم في دولة واحدة جديدة، تدخل مع الوقت في علاقات اقتصادية مع بقية الدول العربية، متطلعة إلى اتحاد اقتصادي مع الأردن وغزة ومتجهة في النهاية إلى "اتحاد سامي" كبير!.

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المشروعات أو نقدها، فكل حل لا يعيد الوضع إلى ما كان عليه قبل 1948 بل قبل 1918 مرفوض بلا نقاش، وكل حل لا يزيل إسرائيل من الوجود لا محل له من البحث العلمي، ولكن سؤالنا المحوري ها هنا هو الأساس الجنسي المزعوم في تلك المشروعات: أحقاً نحن أقارب اليهود وأبناء عمومتهم؟ على أي أساس علمي ذلك، وأي دليل تاريخي ينهض بذلك؟ واضح أن المجال هو مجال الأنثروبولوجي والإنثروبولوجيا ـ علم الإنسان ـ بما يحلل من تاريخ قديم وحديث وبما يدرس من لغة ووثائق دينية وبما يقيس من أجسام وصفات تشريحية وراثية... إلخ.

ونحن نلاحظ أن أغلب كتاباتنا في العربية عن العدو الإسرائيلي تأخذ في جملتها الصبغة السياسية المباشرة أو غير المباشرة التي تعامل العدو كمعطيات مفروغ منها أو ككم معلوم بدرجة أو بأخرى دون أن تحاول أن تنفذ إلى حقيقة كيانهم وتركيبهم : فالكل يهود أو صهيونيون، والكل يعيشون في كنف الاستعمار وحمايته، والكل أتى بصورة غامضة من نسل يهود الشتات الذين أتوا بدورهم بطريقة ما من سلالة يهود فلسطين التوراة... إلخ. وفي هذا الإطار التجريدي الضيق، أو المتعجل غير المستأني ـ الذي قد يكون عملياً ومفهوماً في ذاته ـ تبدو صورة العدو في أذهاننا باهتة عائمة بالغة السطحية، ونبدو أحياناً ـ أكاد أقول ـ كما لو كنا نطارد شبحاً! ونحسب أننا لهذا كله بحاجة إلى دراسة علمية محققة تقتنص هذا الشبح، تجسده، ثم تشرحه أصلاً وتاريخاً، جنساً وتركيباً، تطوراً وتوزيعاً... إلخ.

ونحن هنا سنبدأ بالأصول القديمة في التاريخ الجنسي والديني، ثم نتتبع انتشار اليهود في العالم هجرات وتوزيعاً، حتى إذا ما اكتملت لنا الصورة الراهنة حللنا التكوين الأنثروبولوجي لليهود حتى نعرف من هم وما الدماء التي تجري في عروقهم، وإلى أي حد ينتمون إلى أصولهم الأولى ومن ثم إلى أية درجة من القرابة ينتسبون إلى العرب أو ينتسب العرب إليهم.

وفي تقديرنا أن مثل هذه الدراسة أصبحت ضرورة شرطية لأي فهم عربي سليم أو عرض لقضيتنا الكبرى بعد أن اختلط الأمر بالدعايات الصهيونية المغرضة المضللة وتزييف التاريخ وابتسار الحقيقة العلمية ذاتها.

كذلك لا بد أن نبادر من البداية فنحذر من أن كثيراً من الكتابات العلمية البحتة في الموضوع ينبغي أن تتناول بحذر واحتراس شديدين لأنها تعتمد ـ فعلاً إن لم تعترف علناً ـ على المصادر اليهودية والصهيونية أساساً، وهي من ثم قد تنقل عمداً أو عن غير عمد وجهات نظر محددة ومحسوبة سياسياً.

ونحن من جانبنا ـ على صعوبة المحاولة نفسياً وقومياً ـ لن نترك لتحيزنا السياسي الحق والواجب أن يتدخل في معالجة علمية موضوعية، لا لسبب إلا لأن الدراسة العلمية الخالصة تؤازر ـ كما يتفق ولحسن الحظ ـ القضية السياسية وتدعمها ولا تتعارض معها في الجوهر والصميم. إن الحق والحقيقة ـ كما سنرى ـ في جانبنا على حد سواء.

في التاريخ القديم

أول ما نسمع عن اليهود في التاريخ مع إبراهيم ـ أبي الأنبياء إبراهيم الخليل ـ الذي ظهر مع قومه في القرن الثامن عشر قبل الميلاد كجماعة من الرعاة الرحل على المشارف والتخوم الإستبسية لجنوب العراق الذي كان يؤلف دولة الكلبانيين في أور. ومن قبل كان إبراهيم وقومه قد خرجوا من قلب الجزيرة العربية التي نشؤوا فيها كجماعة من الجماعات السامية العديدة التي تأصلت في ذلك "الخزان البشري" الشهير الذي لم يتوقف عن أن يقذف ـ كإقليم طرد وكصحراء فقيرة ولكنها "ولود" ـ يقذف بالموجة تلو الموجة إلى منطقة الهلال الخصيب المتاخمة والجذابة.

ففي حوالي 1800 ق. م هاجر إبراهيم وقومه، في دورة عكس عقارب الساعة، شمالاً بغرب ثم جنوباً على طول حواف الهلال الخصيب حتى وصلوا إلى حوران ثم إلى فلسطين. وهناك سيولد له إسحق، ولإسحق سيولد يعقوب، ومن أبناء يعقوب الاثني عشر ستتأصل الأسباط أو القبائل الاثنتا عشرة الشهيرة في التاريخ والتوراة.

ولكن هجرة إبراهيم إلى فلسطين وإن كانت أولى هجرات القبائل اليهودية فإنها لم تكن الأخيرة، ذلك أنهم لم يأتوا مرة واحدة كجسم موحد،

وإنما على عدة دفعات جاؤوا ومن عدة طرق وتحت عدة قيادات. والهجرة الثانية مثلاً كانت في القرن 14 ق. م.

ولا بد لنا هنا من وقفة سريعة عند تسمية ـ أو بالأحرى تسميات اليهود. ثمة تسميات ثلاث مترادفات: إسرائيل والعبريون واليهود. والأولى نسبة مباشرة إلى إسرائيل، الاسم البديل ليعقوب. أما العبريون فالمقول أنها مشتقة من هجرتهم من كلدان إلى كنعان حيث "عبروا" النهر ـ نهر الفرات أو نهر الأردن، لا ندري أيهما المقصود تماماً ـ فسموا بالعبرانيين. ويقابل هذه التسمية عند المصريين القدماء كلمة Habiru، وعند البابليين Khebirru، ولو أن هذه وتلك تعني، في رواية، البدو أو اللصوص أو المرتزقة كما وصفهم أعداؤهم في كنعان إشارة إلى طبيعتهم كرعاة متخلفين حضارياً بالنسبة لهم، أما التسمية باليهودية فتدل أصلاً على أبناء يهودا Judah, Jehudah أحد أبناء يعقوب، الذين أصبحوا يمثلون البقية الهامة من بني إسرائيل بعد الأسر البابلي، فصارت تطلق فيما بعد على الإسرائيليين جميعاً. واسم يهودا نفسه قريب من اسم إله الشعب ياهو Jahveh. Jehovah التي قد تكون بدورها تحريفاً للنداء العربي يا هو (؟).

كيف وجد اليهود فلسطين؟

وجدوها أرض كنعان أساساً، نسبة إلى سكانها الكنعانيين. والكنعانيون في التوراة أبناء كنعان بن حام بن نوح، وهم أول من سكن فلسطين على أرجح الآراء. وفي الدراسات السامية القديمة أن الكنعانيين ـ هم الآخرين ـ قبيلة سامية من الساميين الشماليين، جاءت أصلاً من الجزيرة

العربية منذ 2500 ق. م ـ وفي رواية أخرى منذ 3500 ق. م ـ وكانوا قد استقروا بفلسطين منذ ألف ـ أو ألفي سنة وأقاموا بها حضارة راقية. كذلك فإن جزءاً من الكنعانيين كان قد رحل منها إلى الساحل اللبناني حيث عرفوا بالفينيقيين. ومعنى أرض كنعان هو الأرض المنخفضة.

إلى جانب الكنعانيين في فلسطين كان ثمة كوكبة أخرى من القبائل السامية الصغرى كالأيدوميين والعمونيين والمؤابيين على تخوم أرض كنعان، خاصة حول جنوب البحر الميت. وثمة كذلك كان العموريون بعيداً إلى الشمال، وهم أولاد أناك Anak في التوراة، وكانوا قد سيطروا على جزء كبير من فلسطين قبل الزحف المصري الفرعوني نحو الشمال حوالي 1600 ق. م. وحتى نستكمل الصورة، يحسن أن نذكر أيضاً ـ خارج فلسطين ولكن بجانبها تواً ـ الآراميين الذين استقروا في سورية كموجة سامية منذ القرن 14 ق. م، أي في تاريخ يتعاصر مع الموجة الثانية للعبريين.

ولا يبقى لنا الآن في التتابع التاريخي سوى الفلسطينيين Philistines الذين يعدون ـ وحدهم تقريباً من بين كل العناصر والموجات المذكورة ـ أحدث عهداً من العبرانيين في المنطقة. أصل هؤلاء من "شعوب البحر sea-Peoples" المشهورين في التاريخ القديم والذين أتوا من العالم الأيجي بعامة وانتشروا فجأة وبصورة درامية على سواحل اللفانت أو مشرق البحر المتوسط نتيجة اضطرابات في موطنهم لعلها نجمت بدورها عن تدفق الإغريق، فقدر للفلسطينيين ـ الذين يرجح البعض كريت أصلاً لهم ـ أن يستقروا على ساحل

أرض كنعان في 1200 ق. م، أي أيام حروب طروادة، حيث أعطوها اسمهم منذئذٍ.

وقد كان على العبرانيين ليستقروا بأرض كنعان أن يحابوا الكنعانيين، ولكنهم لم يسيطروا إلا على التلال والأراضي الفقيرة الداخلية، وظلت السهول الغنية في أيدي الكنعانيين الأصليين. وأغلب تاريخ اليهود في تلك المرحلة تاريخ دموي لا أخلاقي يدور حول الحرب والغزو، إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم غالباً، وعلى يد الفلسطينيين أقوى أعدائهم بصفة خاصة، حتى إذا كان منتصف القرن 17 ق.م، أي بعد 150 سنة فقط من هجرة إبراهيم، هاجر يعقوب وأولاده إلى مصر بسبب القحط المشهور. وفيها استقروا بأرض جاشان Land of Goshen (وادي الطميلات والشرقية) نحواً من 350 سنة إلى أن خرج بهم منها سيدنا موسى (من الجيل السابع بعد إبراهيم) حوالي 1300 ق. م وذلك هرباً من اضطهاد فرعون (رمسيس الثاني) الذي استعبدهم "ومرر حياتهم في الطوب والملاط" انتقاماً منهم لتعاونهم في خيانة واضحة مع الهكسوس غزاة مصر.

وفي التوراة أن قوة هذا "الخروج" كانت 600 ألف نسمة. وكانت العودة إلى أرض كنعان الهدف، غير أن خوف اليهود من الكنعانيين "العمالقة" أدى بهم إلى المعصية فعقاب التيه في سيناء 40 سنة. ويرى البعض أن الحكمة من التيه، الذي امتد بذلك إلى مدى جيل كامل تاريخياً في بيئة صحراوية قاسية جغرافياً، هو إخضاع اليهود لعملية صارمة من

"الانتخاب الطبيعي" تصفى وتستبعد منهم العناصر الضعيفة الخائرة وتنتخب العناصر القوية الصلبة، وبذلك تبدل من جيل هش منسحق إلى جيل مجدد فوار يصلح للرسالة. وهكذا كان، إلى أن قادهم يشوع إلى نهر الأردن حيث انتزعوا بعضاً من أرض كنعان في الداخل، ولكن دون العاصمة يبوس (القدس) وساحل الفلسطينيين.

وفي فجر الألف الأولى قبل الميلاد بالضبط (بالتحديد عام 1000 ق.م) وحد داود الأسباط او قبائل إسرائيل الاثني عشر، وهزم اليبوسيين والفلسطينيين وأسس ووسع مملكة إسرائيل حتى امتدت أرض إسرائيل Erets Israel" من دان في الشمال إلى بير سبع في الجنوب، واتخذت من يبوس عاصمة لها بعد أن تحول اسمها إلى أورشليم Ierouschoulaim أي مدينة السلام. غير أن الدولة ـ التي لم تصل قط أو بالكاد إلى الساحل ـ لم تلبث أن انشطرت بعد خليفته سليمان صاحب الهيكل إلى مملكتين: مملكة يهوذا جنوباً في هضبة يهودية، وتضم قبيلتي يهودا وبنيامين، ومملكة إسرائيل شمالاً في السامرة، وتضم القبائل العشر الباقية. ومن المهم والطريف أن نلاحظ أن حدود هاتين الدولتين تتفق إلى حد أو آخر لا مع رقعة إسرائيل المزعومة حالياً وإنما مع رقعة الضفة الغربية من دولة الأردن.

والمهم أن الدولتين، اللتين أصبحتا متعاديتين متحاربين، وقعتا في سياسة المضاربة بين مصر والعراق أو الخضوع لهما، فتعرضت المملكة الجنوبية لطرقات مصر مرتين الأولى على يد شيشنق والثانية على يد نخاو،

إلى أن جاء دور المملكة الشمالية حين قضي عليها نهائياً سرجون الآشوري في القرن 8 ق. م (عام 721)، ثم قضى نبوختنصر البابلي على الجنوبية في القرن 6 ق.م حيث دمر أورشليم والهيكل (586ق.م) وبذلك زالت إلى الأبد دولة اليهود في فلسطين بعد حياة طولها أربعة قرون فقط يغلب عليها الطابع الدموي العنيف، بينما أن كل إقامة اليهود المتصلة في فلسطين لم تزد عن ستة قرون من 1200 ق.م حتى 586 ق.م.

الشتات

الشتات البابلي

وإذا كانت الفترات السابقة معاً هي المرحلة التكوينية ـ سفر التكوين ـ فإن من بعدها يبدأ سفر الخروج والشتات Diaspora الذي يمكن أن نميز فيه ثلاث دورات أو أربعاً. فقد بدأ سرجون بنقل كثير من إسرائيلي السامرة من أبناء القبائل العشر إلى بابل وأسكن مكانهم بعض أسراه من البلاد المفتوحة الأخرى. ولكنه نبوختنصر بالذات الذي نقل أغلبية اليهود ـ آخرون يقولون ربع سكان يهودية ـ أسرى إلى بابل، والمقدر أن عدد اليهود قبل ذلك بلغ زهاء ثلاثة أرباع المليون.

ذلك كان "الأسر البابلي" الشهير الذي يمكن أن يعد الشتات الأول. وإذا كان الفرس، بعد أن هزموا بابل (على يد كسرى 538ق. م) واحتلوها وممتلكاتها في فلسطين، قد سمحوا لليهود بالعودة إلى أورشليم بعد نحو نصف قرن من الأسر البابلي، فإن قلة ضئلة هي التي عادت، وتقدر بنحو 50 ألفاً وحتى هذه لم تجد ترحيباً لأن أرض أجدادهم كان يحتلها الآن أسرى سرجون الذين وطنوا بها، ولذلك أسكنوا في منطقة يهودية الجنوبية حيث لم يطرب لعودتهم حتى اليهود المقيمون أنفسهم.

أمـا الأغلبيـة المطلقـة مـنهم فقـد بقيـت في العـراق حيـث كونـت مستعمرات هامة نمت حتى بلغت في عهد المسيح مليوناً بل وأكثر من المليون في القرون التالية إبان العصور العربية الإسلامية. وقد امتد انتشار اليهود في العراق شمالاً إلى كردستان. غير أن يهود العراق ـ مع كل سكانه ـ تعرضوا للإبادة مع الطوفان المغولي حيث هوى عددهم إلى بضعة آلاف فقط. على أن يهود العراق كانوا نواة الشتات شرقاً، فمنهم انشطر يهود فارس الذين غادروا العراق لأول مرة في عهد كسرى، ولكن هجرتهم الكبرى كانت في القرن الثاني عشر الميلادي. وبالمثل كان يهود هيرات في أفغانستان ويهود بخارى وسمرقند في التركستان شظية من نواة فارس.

كذلك يقال إن يهود القوقاز ـ الذين يردون مستعمراتهم المبعثرة في تضاعيف جبالها هناك إلى العصر الآشوري، ولو أن أول ذكر لها تاريخياً يرجع إلى القرن الخامس الميلادي ـ يقال إنهم أتوا من فارس ونواتها القديمة. ومن هذه المراكز الأولية والثانوية يمكن أن نتتبع انتشار اليهود حتى نهاياته ومستعمراته القصوى في الشرق الأقصى بالهند والصين.

ولعل من الجائز لنا أن نذكر هنا يهود الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولو أننا لا نعرف على وجه الدقة تاريخ ظهورهم بها والطريق التي سلكوها إليها، ومن ثم لا ندري إذا كان امتدادهم إليها يرتبط بالشتات البابلي أو بما تلاه من شتات. ففي الجاهلية الأخيرة كان اليهود غير قليلين في مدن وسط الجزيرة وجنوبها خاصة الحجاز واليمن. ففي الحجاز كانت المدينة وخيبر من معاقلهم، بل كانت المدينة تحمل اسماً يهودياً هو يثرب.

غير أن الأرجح أن يهود الجزيرة كانوا في معظمهم عرباً محليين متحولين وليسوا من يهود فلسطين الوافدين. أما في اليمن بالذات فقد تحولت أعداد كبيرة من سكان العصر السبئي إلى اليهودية، بل كان أحد ملوك سبأ في القرن السادس الميلادي يهودياً هو ذو النواس. كذلك فقد كان المهاجرون الحضارمة الذين عمروا الحبشة وأسسوا الإمبراطورية الحبشية يهوداً أصلاً ثم تحولوا مبكراً إلى القبطية غير أن ظهور الإسلام صفى اليهودية تماماً في الجزيرة العربية نفسها فيما عدا اليمن حيث ظل اليهود إلى وقتنا هذا.

هذا، وإذا كان شتات الأسر البابلي قد اتجه أساساً نحو الشرق، فمن المحتمل أن بعض الهجرة اتجهت غرباً إلى شمال أفريقيا (المغرب) حيث يدعي اليهود ممن يسكنون الجبال اليوم ويتكلمون البربرية أن أجدادهم تركوا فلسطين إليها قبل الأسر البابلي نفسه، وحيث يسمون أنفسهم البلشتيم Plishtim، والكلمة تحريف واضح لفلسطين. بل هناك من يرى أن من المحتمل أن اليهود دخلوا شمال أفريقيا مع الفيقنيين، والمؤكد على أية حال أن اليهودية كانت منتشرة ـ بالتحول ـ بدرجة ما في حين ما بين عدة قبائل بربرية حتى ما قبل قدوم الإسلام.

الشتات الهليني

أما الشتات الثاني من شتات اليهود فيتعاصر مع المرحلة الهللينية التي، بعد قرنين من السيادة الفارسية، تبدأ بفتوح الإسكندر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين. والاتجاه العام في هذا الشتات هو نحو الغرب هذه المرة. فإذا كان بعض اليهود في فلسطين قد قاوموا الصبغة الهللينية بعنف وقاموا في القرن الثاني قبل الميلاد بالثورة المكابية المتعصبة التي أنشأت دولة يهودية ضد ـ هيللينية، فإن الكثيرين منهم انتشروا انتشاراً واسعاً بعيد المدى في كل العالم الهللينستي والبيزنطي.

ففي مصر قدر أن ثلث سكان الإسكندرية البطلمية كان من اليهود، كما يقال إنهم قاموا فيها بثورة قتلوا فيها 220 ألفاً من السكان الأصليين(؟). وعدا مصر، فقد وجد اليهود في سورية وآسيا الصغرى من قبل بدرجة أو بأخرى. وعدا هذا وذلك، كان ثمة مركزان رئيسيان لتركز اليهود: البلقان، وسواحل البحر الأسود الشمالية، وكان يسبق العصر المسيحي بوقت طويل. وربما أرسل يهود البلقان منذ ذلك الحين عناصر منهم إلى جنوب الروسيا خاصة كييف حيث كانت المنطقة خاضعة بشدة للمؤثرات البيزنطية. أما مركز ساحل البحر الأسود فكان قطبه القرم حيث ذهب كثير من اليهود مع الإغريق بعد الإسكندر.

وقد أفلت هؤلاء اليهود من طرقات وموجات القوط والهون والتتار التي اجتاحت جنوب الروسيا.

غير أن للتتار هنا دوراً هاماً في التاريخ اليهودي. فقد قامت منهم دولة في القرن السابع الميلادي هي دولة الخزر التترية التي تحولت بالجملة تماماً في رواية أخرى، إلى اليهودية في القرن الثامن أي بأيام شارلمان، بينما ـ بالمقابل ـ تحول اليهود المهاجرون إلى لغة الخزر التركية المسماة بالجاجتاي Jagatai وبهذا أصبح في المنطقة يهود أصليون مهاجرون ويهود متجولون من السكان المحليين.

وقد كان للخزر مركزان، واحد على سواحل بحر قزوين (بحر الخزر عند العرب المعاصرين) عند مصب الفولجا، والثاني في القرم. وقد ألغي المركز القزويني في القرن العاشر الميلادي، ولكن المركز القومي ظل حتى القرن الحادي عشر إلى أن تحطم على يد دولة كييف السلافية الجديدة التي تمثل طلائع الدولة الروسية الحديثة. وعندها انتشر كثير من الخزر من يهود ومتهودين في أجزاء كثيرة من جنوب الروسيا، بالإضافة إلى ما عسى أن يكون دخلها من قبل من يهود البلقان المهاجرين حيث يمكن أن نتتبع ظهورهم ـ على الطريق ـ في روثينيا في القرنين 10 ـ 11، وفي بولنده في القرنين 12 ـ 14. وفي القرن الثاني عشر (عام 1110 بالتحديد) منعت الروسيا نهائياً دخول أي يهود جدد بها وحددت للموجود منهم مناطق معينة لا يقيمون خارجها، وهي التي ستؤلف النطاق الذي سيعرف تاريخياً "بحظيرة اليهود Jewish Pale".

الشتات الروماني والوسيط

يبقى لنا الآن الشتات الثالث والأخير في تاريخ اليهود القديم. إنه الشتات الروماني الذي أخذهم بعيداً إلى العالم الروماني أي إلى الغرب الأقصى بالنسبة إلى المواطن الأصلي فلسطين، وذلك في حركة مع عقارب الساعة ستستمر عبر العصور الوسطى حتى العصور الحديثة.

وقد بدأ هذا الشتات في الواقع مع الثورة المكابية، لكنه اكتمل مع الفتح الروماني لفلسطين الذي يكاد يتعاصر بدقة مع بداية العصر المسيحي.

فلقد تواترت ثورات اليهود ـ الذين لم يعودوا يزيدون على أقلية من سكان فلسطين ـ على الحكم الروماني الذي رد بتخريب أورشليم الهيكل وبإبادة اليهود في مذبحة سنة 70 ميلادية الفاصلة (تيتوس) التي صفت أغلبهم محلياً وفر منها أقلهم إلى مصر وسورية. غير أن بقايا اليهود عادوا إلى الثورة في 135 ميلادية حيث قوبلوا بمذبحة نهائية (هادريان) ختمت إلى الأبد على مصير اليهود في فلسطين كدولة وكقومية. فعدا تدمير أورشليم والهيكل مرة أخرى، صفيت بقايا اليهود بالإبادة والهجرة.

فعن الأولى يقول جوزيفوس المؤرخ Josephus إن 1.350.000 قتلوا في المعارك التي يعددها، كما يقال إن 900.000 آخرين أسروا أو بيعوا كرقيق، كما مات مئات الآلاف غيرهم من المجاعات والأوبئة والمذابح.

ويعلق هنتنجتون ـ وهو جغرافي يهودي لا يخفي تعصبه ـ بأن هذه أرقام مبالغ فيها بلا شك، ويمكننا نحن أن ننبذها ونعدها خرافية تماماً لأن الأدلة التاريخية وإشارات التوراة نفسها كما رأينا تضع كل تعداد اليهود في حدود تقصر دون ذلك كثيراً جداً ولا تتجاوز ثلاثة أرباع المليون كحد أعلى. ومن الناحية الأخرى فإن البعض يقدر أن عدد من أبيد من اليهود في هذه الثورة لا يقل عن 600 ألف. فإذا صح هذا الرقم، ولعله أدنى إلى العقل، فذاك انقراض جنسي حقيقي لم يكد يترك منهم شيئاً.

وحتى هذا الذي تبقى تكلفت الهجرة القهرية بتصفيته. فقد حرم الرومان على اليهود دخول القدس نهائياً، وطردهم من فلسطين إلى كل أجزاء الإمبراطورية، وكان هذا هو التاريخ الذي انتهت فيه وإلى الأبد علاقة اليهود بفلسطين سياسياً وسكانياً. أنه الخروج الأخير.

كذلك فقد قتل أو طرد كل اليهود في قبرص. وحتى ندرك مدى ضآلة ما تبقى من اليهود بعد هذه المذابح والمطاردات، يكفي أن نذكر أن عدد يهود الخروج الأخير هذا يقدر بنحو 40 ألفاً فقط! وهو رقم لا بد أن نتذكره دائماً لما سيكون له من دلالات جنسية وتاريخية وسياسية عميقة المغزى.

أما ما تبقى بعد هذا وذاك من يهود بفلسطين فشراذم ضئيلة ازدادت تناقصاً فيما بعد بتحول بعض أفرادها إلى المسيحية. ولعل أهم تلك البقايا السامريون الذين تحولوا إلى قوقعة قزمية مغلقة في نابلس Schechom القديمة) حتى أنها لا تزيد اليوم عن مئة أو مئتين! وفي بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود في فلسطين كلها ليزيد عن 10 آلاف نسمة.

والملاحظ أن تحولاً جذرياً طرأ على اليهود بعد هذه الإبادة الشاملة والتشريد. فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموي حربي كله الغزو والعدوان، وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف. أما بعد مجازر الآشوريين والبابليين ثم الرومان فقد تحول اليهودي فجأة إلى شخصية مستضعفة خانعة تحقق أغراضها بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة. ويرجع هنتنجتون هذا التحول في الشخصية الجماعية إلى عملية الانتخابات التي فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة ولم يبق إلا عناصر الجبن والمسكنة والخبث... إلخ. ومنها ومن حينها أخذ اليهود طابعهم الذي عرفوا به في كل العالم حتى اليوم.

على أن يهود الشتات الروماني لم يأتوا من طريدي فلسطين وحدها وإنما من كل مستعمراتهم السابقة القائمة في العالم الهللنستي. فتبعوا الرومان إلى إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا حتى الراين، وكان طريق الرون ـ الراين ـ فرانكفورت، وهو طريق التجارة وشريانها التقليدي، خطاً محورياً في دخولهم العالم الروماني. ومنذ القرن الثالث الميلادي على الأقل كانوا قد وصلوا إلى الراين، حيث تحولت فرانكونيا بالذات إلى قاعدة رئيسية ونواة لهم وكادت

عاصمتها فرانكفورت أن تكون عاصمة يهود الشتات الجديد. ومنذ ذلك الوقت نشأت علاقة تاريخية وثيقة بين مدينة فرانكفورت واليهود ستظل عبر القرون حتى يومنا هذا.

ويقدر البعض عدد اليهود في الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي بما يتراوح بين 4، 7 ملايين أي نحو 7% من مجموع السكان. وهذا الرقم ـ أياً كان نصيبه من الدقة أو الصحة ـ ينبغي أن نذكره جيداً وأن نقرنه في الذاكرة بعدد بقايا يهود فلسطين عند الخروج الأخير والبالغ 40 ألفاً، لأن معناه أن اليهود في الشتات ضاعفوا عددهم بين 100، 180 مرة في أقل من 500 سنة (!)، وهو معدل فلكي لا يمكن أن يلقي ضوءاً حاسماً على طريقة نموهم، أن تزايداً طبيعياً أو تزايداً بالتبشير والتحول.

بيد أن العصور الوسطى لم تلبث أن أتت بحروبها الصليبية التي أشعلت نار الاضطهاد الديني ضد اليهود في جميع أنحاء أوربا مثلما أثارتها ضد العرب خارجها وعلى أطرافها ومشارفها، هنالك بدأت عمليات الطرد بالجملة والإبادة التي ستؤدي في النهاية إلى تغيير جذري في توزيع اليهود في أوربا. ففي أواخر القرن الرابع عشر (عام 1394) اختفى يهود فرنسا تماماً بعد أن طردوا بالجملة منها وتشتتوا في الدول المجاورة. أما يهود إيطاليا فظلوا متقوقعين بها حيث يتصل تاريخهم بلا انقطاع وحيث تلقوا ـ فضلاً عن ذلك ـ هجرات من يهود بلاد أخرى فيما بعد.

أما يهود ألمانيا وإسبانيا فسوف يكون لهم الدور الأكبر في قصة اليهود في العصور الحديثة. فهؤلاء هم الذين تعرضوا لأشد أخطار الإبادة والطرد، ومنهم ومن نسلهم سيستمد التقسيم الثنائي الرئيسي الذي يفرق بين يهود شمال أوربا من ناحية جنوب أوربا وحوض البحر المتوسط من ناحية أخرى، أعني ثنائية الأشكناز والسفاردي على الترتيب Sephardim Ashkenazim والأشكنازيم والسفارديم كلمتان قديمتان في التوراة استعارتهما التقاليد اليهودية في العصور الوسطى لتميز بين يهود ألمانيا ويهود أسبانيا على الترتيب، اعتقاداً منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة يهودا، ويهود أسبانيا من نسل قبيلة بنيامين. والسفارديم يعدون أو يدعون أنفسهم "أرستقراطية" اليهود على الأساس الديني، غير أنه قدر للأشكناز أن يؤلفوا الأغلبية الساحقة عددياً ـ 80 إلى 90% فيما يقدر ـ والطبقة المسيطرة المتفوقة حضارياً إلى حد يحتقرون معه السفارديم احتقاراً لا يحفلون بإخفائه.

فإذا عدنا إلى الشتات وبدأنا بالأشكناز، وجدنا أن أول اضطهاد يتعرض له يهود الراين بألمانيا يبدأ مع الحملة الصليبية في القرن الحادي عشر (عام 1096)، ولو أنهم كانوا قد بدؤوا يتسربون إلى العالم السلافي في بوهيميا وبولندة قبل ذلك بقرنين أو أكثر. هنالك بدأت الهجرة الهاربة التي تسارعت خطاها مع الحملات التالية والتي اتجهت أساساً نحو الشرق. ونحو الشرق اتجهت لأن ملوك بولندة، الذين كانوا يعملون على زيادة سكان مدنهم، رحبوا بكل هجرة، فاغتنم اليهود الفرصة، وكان خروج بالجملة وصل إلى حد أثار في النهاية مخاوف بولندة. غير أن انتقال جسم الأشكناز كان قد تم

نهائياً، وتحولت نواة فرانكونيا القديمة إلى مجرد بقايا أو إلى شبح يذكر بالتوزيعات التاريخية الأولى، وفي نهاية القرن السادس عشر لم يكن ثمة سوى ثلاث مدن ألمانية مفتوحة لليهود هي فرانكفورت وفرمس Worms وفيرت Fürth.

أما في بولندة وجنوب الروسيا فقد التقى اليهود الألمان مع بقايا اليهود البيزنطيين ويهود الخزر الذين كانوا بدورهم قد بدؤوا يطاردون نحو الشمال والغرب على يد الاضطهادات السياسية الشهيرة المعروفة في الروسيا بالبوجروم Pogroms، والتي اتسع نطاقها ليشمل يهود بولندة بعد تقسيم هذه الدولة وانتقال الشطر الأكبر منها إلى الروسيا. وتتمثل آثار هذا اللقاء الآن من بين ما تتمثل في يهود القرم الذين ينقسمون إلى يهود قرائين، وإلى يهود القرمشاك Krimshaks الربانيين، كما تتمثل في يهود ليتوانيا القرائين.

والمهم أن ذلك اللقاء تحول ـ ولم يكن له بد من أن يتحول ـ ليس فقط إلى شملية تراكم عددي وتكثيف وتكتيل لليهودية ستعطينا واحدة من كبريات تجمعاتها في العالم حتى اليوم، وإنما تحولت كذلك إلى عملية خلط ومزج وصهر سيسود فيها يهود الغرب الألمان عددياً وحضارياً على السواء. ومن أوضح وأبسط مظاهر هذه السيادة اللغة الجديدة التي نشأت عن التفاعل وهي اليديشية Yeddish المستمدة من اللهجة الألمانية العليا Hoch Deutsch التي حملها معهم يهود الغرب ـ وكلمة يديش نفسها تحريف واضح لكلمة يهودي بالألمانية ـ والتي ستصبح أهم لسان بين ألسنة اليهود التي لا حصر لها.

أما عن السفارديم فتبدأ قصتهم مع طرد اليهود ـ جنباً إلى جنب مع العرب ـ من إسبانيا في حروب "الاسترداد Reconquista" عام 1492 بعد عصر من الاضطهاد والإبادة على يد محاكم التفتيش. والمقدر أن عدد يهود إسبانيا العربية وصل في حين ما إلى حد المليون نسمة. وقد انتشر هؤلاء اليهود في فترات مختلفة إلى هولندا وإنجلترا، وإلى إيطاليا وفرنسا، ولكن خاصة إلى شمال أفريقيا ابتداء من مراكش حتى تونس، وبالأخص إلى الإمبراطورية العثمانية. ففي الإمبراطورية العثمانية الحديثة التوسع وجدت الأغلبية الساحقة من السفارديم موطنها الجديد، ابتداء من البلقان والدانوب حتى الأناضول والشرق الأوسط حيث كانت سالونيك والقسطنطينية من أهم بؤرات تجمعهم، وحيث التقوا باليهود القدامى من بيزنطيين وسابقين للعصر البابلي سواء غرباء مهاجرين أو محليين متحولين.

وفي كثير من هذه المهاجر الجديدة أصبح الساريم ـ كالأشكنازيم في مهجرهم الجديد ـ هم السائدين عددياً بين الجاليات اليهودية، بل كادوا أن يكونوا العنصر الوحيد في يهود مدن البلقان. وفي كل هذا المجال الجغرافي أطلق عليهم اسم الإسبانيولي Spaniol, Spagnuol، كما حملوا إليه ـ كالأشكناز ـ لغتهم الإسبانية المحرفة المعروفة باسم اللادينو Ladino، وظلوا حتى اليوم يلبسون لباساً خاصاً ويبدون خصائص حضارية وثقافية تذكر بقوة بفترة إقامتهم الإسبانية.

الشتات الحديث

تلك قصة "اليهودي التائه أو المتجول" من أول شتات قبل الميلاد إلى آخر شتات في مطالع العصور الحديثة. بيد أن هناك حلقة رابعة تتمم السلسلة، وتتركز في القرن أو القرنين الأخيرين، ولا بأس أن نشير هنا بإيجاز إلى خطوطها العريضة ولعلها خطان رئيسيان أو ثلاثة، وفيها جميعاً سيكون الدور الأكبر بطبيعة الحال للأشكنازيم بحكم سيادتهم العددية، وإذا كان السفارديم قد ساهموا في الشتات الحديث فبقدر محدود.

والانتشار الأول والأهم في الفترة المعاصرة هو بلا شك انتشار العالم الجديد بمعناه الواسع والولايات المتحدة بصفة خاصة. ويمكن أن نميز في هجرة اليهود إلى أمريكا الشمالية مراحل ثلاثاً، لكل منها قطبها الجغرافي، وثلاثتها ترسم معاً حركة واضحة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. فالأولى تتفق مع ما يعرف في التاريخ الأمريكي "بالعصر الاستعماري" في القرنين السادس عشر والسابع عشر. ومصدرها الرئيسي إسبانيا والبرتغال، وقوامها السفارديم أساساً، وطلائعها الأولى مبكرة حقاً تتعاصر مع الآباء المهاجرين والبيورتان، ولكنها في الجملة قوة محدودة عددياً.

أما المرحلة الثانية ففي أواسط القرن التاسع عشر تقع، وترتبط أساساً بأواسط أوربا: ألمانيا بالدرجة الأولى ثم فرنسا. ذلك عصر الثورات والاضطرابات السياسية التاريخية في القارة، فكان خروج يهودي نشيط حمل إلى الولايات المتحدة نحو ربع المليون: فالمقدر أن ثورتي 1830، 1848 قذفتا إليها بنحو 230 ألف يهودي.

أما المرحلة الثالثة ففترة ممدودة حول دورة القرن من 1885 إلى 1914، وكان قطبها المركزي في الإرسال الروسيا القيصرية يحف به هالة تشمل النمسا ـ المجر ورومانيا. وقد دخل الولايات المتحدة من اليهود بين 1881، 1910 زهاء 1.562.000، منهم 1.119.000 من الروسيا، 281 ألفاً من النمسا ـ المجر، 67 ألفاً من رومانيا. وفيما بين 1913.1900 فقط هاجر من الروسيا 964 ألف يهودي إلى الولايات المتحدة، 60 ألفاً إلى كندا.

ذلك إذن تيار كثيف عرم من وسط وشرق أوربا انفجر مع استمرار الاضطهاد والغربة من جهة ومع فتح باب الهجرة إلى الولايات من جهة أخرى، انفجر ليستقر في أمريكا الشمالية منذ العشرينات من القرن الحالي وليصبح فيما بعد أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض على الإطلاق. كذلك انطلقت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية بأغلب وحداتها السياسية خاصة البرازيل والأرجنتين.

أما في العالم القديم فقد كانت كثافة وقوة الهجرة أقل بكثير، وكانت استراليا وجنوب أفريقيا هما القطبين الأساسيين فيها. غير أننا لا ينبغي أن ننسى المجال السوفيتي حيث هجر بعض من يهود الروسيا إلى الشرق

الأقصى السوفيتي وأقيمت لهم جمهورية خاصة هي جمهورية بيروبيدجان Birobidjan اليهودية في حوض الآمور. ومحصلة كل هذه الهجرات أن الانتشار الحديث توزع في كل الاتجاهات، أي على إطار دائري حول النواة التاريخية القديمة، ولكن مركز ثقله المطلق كان دائماً صوب الغرب الأقصى استمراراً لاتجاه المحور الأسي في كل حركة الشتات اليهودي عبر التاريخ.

بعد هذا تمثل الفترة النازية في ألمانيا الهتلرية دورة شتات جديدة. فقد أدى الاضطهاد النازي لليهود، الذي وصل إلى قمته في عمليات الإبادة الجماعية التي يقدر البعض جملة حصادها إن خطأ أو صواباً وإن حقاً أو مبالغة بنحو خمسة ملايين يهودي، أدى هذا إلى حركة خروج أو بالأحرى هروب من الرايخ وأوربا الوسطى بعامة. وإذا كانت هذه الحركة قد جمعت كثيراً من يهود أوربا في فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية، فإن الجزء الأكبر منها اتجه إلى العالم الجديد خاصة الولايات المتحدة. فكانت عملية تفريغ ليهود وسط أوربا وتكثيف ليهود الولايات المتحدة، كما كانت بداية عملية أو جريمة زرع إسرائيل.

وهذه الجريمة الأخيرة نفسها هي دورة جديدة في ـ ماذا نقول ـ شتات اليهود، غير أنها اختزلت وكثفت كل تاريخ اليهود في الاضطهاد وعكسته على عرب فلسطين الشرعيين. إنها الدورة الصهيونية التي قامت بعملية "إسقاط" على العرب لكل تجربة يهود الشتات من إبادة وطرد وخروج ابتداء من الأسر البابلي حتى ضد السامية النازية. ومع اغتصاب فلسطين، الذي تسميه الصهيونية بالكذب وللسخرية المريرة "حرب الاستقلال" "والعودة إلى

أرض الميعـاد" (!)، تشـععت تيـارات وموجـات الهجـرة نحـو بـؤرة واحـدة وجديدة.

من بين هذه التيارات كان التيار الأوربي هو السائد في بداية صنع إسرائيل، ثم تحول إلى آسيا، وبعدها إلى أفريقيا على الترتيب. ولما كان هذان المصدران الأخيران يقع أغلبهما في العالم العربي، بينما طرد عرب فلسطين إلى البلاد العربية المجاورة، فقد وصل السفه الإسرائيلي الصهيوني إلى حد الزعم الفاجر بأن العملية كلها ليست إلا عملية "تبادل سكان"! غير أن المستقبل القريب جدير بأن يثبت أن إسرائيل لن تكون إلا مجرد مرحلة في رحلة الشتات التاريخية مجرد جملة اعتراضية في تاريخ فلسطين، وقريب هو لا شك "الخروج" الجديد..

طوائف ثلاث

ونستطيع الآن بعد أن انتهينا من ديناميكية اليهود عبر التاريخ أن ننظر نظرة عامة إلى صورتهم الاستاتيكية الحالية كما تتمثل في التصنيف الأولى لفئاتهم الطائفية. ولقد رأينا التفرقة بين الأشكناز والسفاردي، ولكن لا بد أن نضيف اليهود الشرقيين Oriental Jews.

هؤلاء لا يقعون داخل أي من المجموعتين الأوليتين، وإنما يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القديمة من فلسطين رأساً أو من مراكز يهودية ثانوية. وهم إذا كانوا ـ نظرياً ـ الأقرب إلى الأصول الفلسطينية، فإنهم الأقل عدداً والأدنى مرتبة في الهيراركية اليهودية، فكل من الأشكناز والسفارديم ينظر إليهم نظرة احتقار وازدراء بلا مواربة.

أما توزيعاً، فإن الأشكناز يشملون اليوم يهود غرب ووسط وشرق أوربا، بالإضافة إلى خلاياهم الجديدة التي انشطرت في العالم الجديد بقارتيه، ثم جنوب أفريقيا وأستراليا. ويشمل السفاردي يهود البلقان والشرق الأدنى، كما يشمل مستعمرات وجاليات مبعثرة على شواطئ البحر المتوسط الشمالية والجنوبية، بالإضافة أخيراً إلى امتداداتهم الحديثة والمحدودة في العالم الجديد شماله وجنوبه. أما اليهود الشرقيون فإليهم تنتمي مستعمرات في شمال

أفريقيا وفلسطين، ثم مستعمراتهم في العراق واليمن، ثم القوقاز وإيران والتركستان الروسية، وكذلك الهند والصين.

وبعض هذه التوزيعات يستحق شيئاً من التفصيل. ففي القوقاز تنتشر شظايا اليهود الشرقيين تحت أسماء مختلفة: فثمة يهود الجبال في داغستان من بقايا الخزر القدامى والذين يعيشون في ثنايا الشعب اللزجي Lesghians ويتكلمون لهجة فارسية، وثمة يهود جورجيا في تفليس خاصة، ثم يتمم الصورة الفسيفسائية يهود الشماخة Shemakha في أذربيجان. أما في فلسطين، فإذا كان اليهود المحليون قبل الاغتصاب هم من الشرقيين، فقد جمعت الصهيونية بالهجرة بين المجموعات الرئيسية الثلاث بنسبة النصف من الأشكناز والنصف من السفارديم والشرقيين.

توزيع اليهود في العَالم

اكتملت لنا الآن فيما نأمل صورة هيكل التاريخ اليهودي على نحو ما، وآن لنا أن نضع التوزيع الراهن لليهودية العالمية Judenthum تحت المهجر، وذلك قبل أن نتقدم لندرس أنثروبولوجية اليهود جنسياً، فإن لتوزيع اليهود في ذاته ـ واليهود بالذات ـ قيمة ودلالة أنثروبولوجية حاسمة كما سنرى. ولعل من الواضح الآن أن الذبذبة العنيفة ما بين نمو وتناقص هي ملمح أساسي جداً في كيان اليهودية العالمية، شأنها تماماً شأن السيولة الجغرافية النادرة المثال في توزيعها المكاني.

إنها إذن ذبذبة مزدوجة في الزمان والمكان، بل لعلهما هنا جانبان لشيء واحد. إلا أن الذبذبة العنيفة في الزمان تجعل نمو اليهود في نهاية المطاف وعلى المدى الطويل أقرب إلى الجمود والتوقف النسبي. فكلما نموا بالزيادة الطبيعية سرعان ما تحصدهم الاضطهادات فيعودون إلى نقطة البدء من جديد. أما الذبذبة في المكان فتنتهي إلى تغيير جذري ومثير في أوطانهم الإقليمية بصورة انقلابية تماماً.

ونحن نستطيع هنا أن نعرض "لقطتين" لتوزيع اليهود بين تاريخين متباعدين بما فيه الكفاية لندرك هذه الذبذبات الانقلابية: الأولى في العقد

أو العقـدين الأخـيرين مـن القـرن الماضـي، والثانيـة في يومنـا هـذا. فحـوالي 1880 وبعدها قدر عدد يهود العالم بنحو 6.5 مليون نسمة، منهم 5.5 مليون في أوربا وحدها بنسبة 84.5%، 420 ألفاً في أفريقيا بنسبة 6.5%، 250 ألفاً في آسيا بنسبة 4%، والبقية في أمريكا وأستراليا.

أما حوالي نهاية القرن أو دورته فقد قدر عدد يهود العالم بنحو 8 إلى 9 ملايين. من هؤلاء كان 6 ـ 7 ملايين يتوزعون في أوربا وحدها أي بنسبة 80%. وهناك في أوربا، حيث التوزيع أو الكثافة أبعد شيء عن التجانس، كان مركز الثقل يتحدد في دائرتين يفصل بينهما برزخ أو انخفاض عميق: دائرة في الشرق وأخرى في الغرب. فالأولى دائرة الأساس، وهي بالفعل دائرية شكلاً، تغطي جنوب غرب الروسيا وجنوب دويلات البلطيق وكل بولندا (والأخيرتان كانتا تابعتين للروسيا سياسياً)، ثم أقصى شرق ألمانيا حيث اشتد طفح يهود بولندا بدرجة خطيرة أثارت صيحة ضد السامية، ثم أخيراً إمبراطورية النمسا ـ المجر شمال الدانوب. وحدود الدائرة شرقاً في الروسيا قاطعة حادة بحكم القانون الذي قصر إقامة اليهود على مناطق معينة، وترسم قوساً من القوقاز إلى البلطيق.

أما في مجموعها فتزن الدائرة أكثر من 6 ملايين يهودي: إنها ببساطة قطب اليهودية في العالم. وثقلها الطاغي هذا وحده يجعلنا نفترض لها أكثر من مصدر تاريخي، فليس من المعقول أن نفترض أنها استمدت كل جسمها من الدائرة الصغرى وحدها إلى الغرب، بل لا بد كذلك أن نفترض المصدر الشرقي عن طريق القوقاز، إلى جانب التحول الديني المحلي. من هذه الدائرة

يحتل جنوب غرب الروسيا القلب المطلق، فكان في الروسيا نحو 4 ـ 5 ملايين أي نصف يهود العالم. ولكننا حين نقول الروسيا فإنما نقصد معها الجزء الأكبر من بولندا الذي ضم إليها في التقسيم السياسي (Polognerusse) والذي كان هو النواة النووية الحقة في كل دائرة اليهود الشرقية. بل يذكر البعض أن يهود بولندا وحدها كانوا يؤلفون نصف يهود العالم. أما بقية التوزيع فكانت النمسا ـ المجر تلي بنحو مليونين، ثم رومانيا بحوالي 600 ـ 700 ألف.

أما عن الدائرة الثانية في الغرب فهي أصغر بكثير، تنتشر في حوض الراين بعامة وفرانكونيا والألزاس واللورين وهولندا بخاصة، وتستقطب جميعاً حول مدينة فرانكفورت. فكان بكل ألمانيا نحو 600 ـ 700 ألف، الجزء الأكبر منهم في حدود هذه الدائرة، وكان بهولندا 100 ألف، وبفرنسا 80 ألفاً. أما خارج هاتين الدائرتين فتقل أعداد وكثافات اليهود كثيراً أو كثيراً جداً: بريطانيا 100 ألف أغلبهم في لندن، إيطاليا 50 ألفاً، أما اسكندناوة فكان اليهود ممنوعين حتى منتصف القرن تقريباً، وفي أسبانيا لم يكن ثمة يهودي على الإطلاق منذ "الاسترداد". أما خارج أوربا فكان المقدر أن يهود الولايات المتحدة لا يزيدون حينذاك ـ رغم بداية تدفق الهجرة من الروسيا ـ لا يزيدون عن نصف المليون مبعثرين في مدنها الكبرى، منهم ربع مليون في نيويورك.

وفي 1905 قدر عدد يهود العالم بأكثر من 11 مليوناً، نصفهم في الروسيا ورومانيا، وثلثهم في ألمانيا والنمسا، والسدس في بقية العالم. ولكن أثر الهجرة إلى العالم الجديد كان قد بدأ، فإن أغلب هذا السدس الأخير أو نحو 13% من مجموع اليهود كان يحتشد في الولايات المتحدة وحدها.

ماذا تعني هذه الأرقام وتلك التوزيعات؟ مهما يكن من أمر، وبغض النظر عن التطورات الطفيفة في التوزيع بين تلك التواريخ المتقاربة، فإن ملامح الصورة العامة واضحة. فأوربا هي عملياً الوطن المطلق لليهودية العالمية، وما يوجد خارجها ليس بالمقارنة إلا شظايا.

وعلى مستوى النظرة الكلية يمكن أن نتصور ثلاث دوائر هي أقطاب التوزيع حتى نهاية القرن الماضي، تقع على عروض متقاربة ولكنها تتضاءل بسرعة وبشدة أقطاراً وأحجاماً من الشرق إلى الغرب: دائرة شرق أوربا ومركزها بولندا الروسية، ودائرة غرب أوربا ومركزها الراين وفرانكفورت، وأخيراً دائرة الولايات المتحدة ومركزها نيويورك.

لننظر الآن إلى توزيع اليهود المعاصر لنرى الانقلاب المطلق. لنذكر أولاً أن الصورة في أوربا قبل النازية والحرب الثانية كانت تختلف كثيراً في أساسياتها عن صورة نهاية القرن، وفي نفس الوقت كانت تتشابه.

تتشابه من حيث أنها تمثل تكثيفاً تراكمياً لتلك الصورة بحكم التزايد الطبيعي، وتختلف في أنها بدأت تعكس نتائج وآثار الهجرة إلى العالم الجديد بصورة حاسمة.

إنها باختصار تمثل مرحلة الانتقال من نمط منتصف القرن التاسع عشر إلى نمط منتصف القرن العشرين.

ففي عام 1939 قدر يهود العالم بنحو 15 مليوناً. (ولعل هذه أعلى قمة سجلتها ديموغرافية اليهود في تاريخهم، فبعدها جاءت إبادة النازية التي ـ وأن رفضنا مبالغات وتهويل الدعايات الصهيونية ـ حصدت منهم لا شك عدداً كبيراً). أما عن التوزيع، فالمقدر أنه كان بأوربا 10 ملايين أي الثلثان، منهم 3 ملايين في الاتحاد السوفييتي، 3 ملايين في دول شرق أوربا الجديدة وهي دويلات البلطيق وبولندا، أما أمريكا فكان نصيبها 4.5 من المليون، وآسيا ثلاثة أرباع المليون.

أما الآن ـ 1966 ـ بعد أن عاد اليهود إلى النمو الطبيعي منذ نهاية الحرب، فإن عددهم يقدر رسمياً بنحو 13.4 من المليون. والرقم ـ قبل أن ندخل إلى تحليل جزئياته ـ جدير بوقفة تأمل، فإن له أكثر من مغزى. فأولاً، إذا تذكرنا عدد اليهود في القرن الخامس الميلادي (4 ـ 7 ملايين) فإن معناه أن اليهود في 1500 سنة لم يتضاعفوا إلا مرة واحدة، بينما كانوا قد ضاعفوا أنفسهم في القرون الخمسة السابقة بمعدلات خيالية! ولا تفسير لهذا إلا ميكانيكية النمو والتناقض بالتناوب، أو ميكانيكية شد الحبل المزمنة بين قوى النمو الطبيعي وقوى الاضطهاد والإبادة. ثانياً، وفي الإطار الكوكبي، يبدو اليهود على الفور شيئاً ضئيلاً بالغاً حد القزمية في ديموغرافية العالم: 13.4 من المليون من أكثر من 3300 مليون، أو 3 ـ 4 في الألف من سكان العالم، وتبدو اليهودية بسهولة قوقعة دينية حفرية ضامرة.

والواقع أن اليهودية، وحدها من بين الأديان السماوية، هي التي تشترك مع كثير من الديانات غير السماوية، في أنها ديانة "مقفلة أو مغلقة"، أي تحجم عن التبشير وتحتر نفسها أبداً. وإذا كان البعض يصنف الديانات المقفلة هذه إلى نوعين: ديانات "جغرافية" وديانات "عنصرية" ـ يعني على الترتيب ديانات محلية التوزيع قاصرة على وطن أو بيئة محدودة، أو مرتبطة بقوم أو عنصر بعينه ـ فإن اليهود يمثلون شذوذاً يكاد يصل إلى حد المتناقضة الفذة.

فهم قد بدؤوا ديانة جغرافية وعنصرية معاً، وبصرامة قاطعة ذلك، ولكن منذ الشتات انتشروا أيدي سبأ في أرجاء العالم لتصبح اليهودية عالمية أو شبه عالمية بمجرد توزيعها، وإن كانت أبعد شيء عن العالمية بحجمها القزمي الضئيل. كذلك فقد تخلط اليهود ـ كما سنرى ـ وداخلهم بالتحول والتزاوج دماء عناصر شتى لا حصر لها، فما عادوا عنصراً بعينه متجمداً على الديانة، ولا الديانة عادت مرادفة لعنصر جنسي واحد. ومع ذلك فاليهود واليهودية، بالسياسة والمذهبية، تمثل عنصرية عاتية غاشمة تلخصها في كلمة واحدة الصهيونية المعاصرة.

والآن، كيف يبدو نمط توزيع هذه الأقلية الدينية العالمية؟ الجدول الآتي، الذي يدور حول أواخر الخمسينات وكما أورده كتاب "اليهودية العالمية World,Jewry لا يعطي إلا 12 مليوناً كمجموع كلي، ولذا فهو يقدم صورة رقمية قد تختلف قليلاً عن صورة اليوم، ولكنه يظل يعطي نسباً صحيحة بوجه عام.

القارة	عدد اليهود	%
أوربا (بكل الاتحاد السوفيتي)	3.400.000	28.8
أمريكا الشمالية	5.433.000	45.1
أمريكا الجنوبية	633.000	5.3
آسيا	1.855.000	15.4
أفريقيا	585.000	4.9
أستراليا ونيوزيلند	61.000	0.5

والحقيقة الكبرى التي يكاد يضج بها الجدول هي أن نصف يهود العالم جميعاً يعيشون في العالم الجديد، السواد الأعظم منهم في أمريكا الشمالية التي تعني عملياً الولايات المتحدة بالتحديد. هذا بينما لا تضم أوربا، وهي التي كانت منذ نصف قرن حتى نهاية القرن الماضي تحتكر 80% من يهود العالم، لا تضم إلا ما يزيد عن الربع قليلاً. انقلاب كامل، وانتقال مطلق لمركز الثقل! وهو انتقال في نفس الاتجاه وعلى نفس المحور التاريخي لحركة ورحلة اليهودي التائه: إلى الغرب دائماً.

أما آسيا وأفريقيا فلا تجمعان معاً إلا خمس اليهودية، وهذا أيضاً شذوذ طارئ جديد لأن النسبة الكبرى منهم تتشكل من صهيونية إسرائيل الدخيلة الغاصبة، وبغيرها لا تزيد آسيا وأفريقيا عن 7 ـ 8% من يهود العالم، بل يهوي عدد يهود آسيا إلى 136 ألفاً فقط وتهوي نسبة آسيا إلى 2.5% لتصبح أقل من أفريقيا وأقل القارات جميعاً باستثناء أستراليا.

أما داخل القارات ففي هذا الجدول انعكاس لأهم ملامحها بحسب أرقام "اليهودية العالمية" سابق الذكر، علماً بأن النسب المئوية تشير إلى نسبة يهود كل دولة إلى سكان تلك الدولة.

الدولة	عدد اليهود	%
كندا	233.000	1.4
الولايات المتحدة	5.200.000	3.1
الأرجنتين	360.000	1.8
البرازيل	120.000	0.2
أوروجواي	50.000	2.0
النمسا	11.800	0.2
بلجيكا	35.000	0.4
هولندا	26.000	0.2
تشيكوسلوفاكيا	20.000	0.2
بريطانيا	450.000	0.9
فرنسا	350.000	0.8
بولندا	45.000	0.2
ألمانيا	30.000	0.0
المجر	110.000	1.1
إيطاليا	32.000	0.3
رومانيا	225.000	1.3

الدولة	عدد اليهود	%
الاتحاد السوفيتي	2.000.000	0.8
تركيا	60.000	0.2
المغرب	200.000	2.1
الجزائر	130.000	1.4
تونس	80.000	2.1
مصر	40.000	0.2
أثيوبيا	12.000	0.1
جنوب أفريقيا	110.000	0.7
الهند	25.400	0.0
إيران	80.000	0.4
إسرائيل	1.719.000	89.2
سورية	5.000	0.1
لبنان	6.000	0.4
اليمن	3.500	0.1
عدن	800	0.1
استراليا	57.000	0.6

والجدول حافل بالحقائق المثيرة الجديرة بكل ملاحظة وتدبر. فأولاً، كما انتقلت الصدارة من أوربا إلى أمريكا الشمالية، انتقلت من الروسيا (الاتحاد السوفييتي) إلى الولايات المتحدة التي هي اليوم المعقل الأكبر

لليهودية حيث تضم وحدها 44% منها. وقد نما عدد اليهود في الولايات المتحدة من 4.081.000 في 1926 إلى 4.461.000 في 1936، ثم ظل بعد ذلك يرد لسنوات طوال متتابعة على أنه 5 ملايين بحسب تقدير الأجهزة اليهودية. وكما يعلق بيرجل Bergel، فذاك مجرد تقدير تخميني لا شك، وأهم من ذلك أنه مبالغ فيه على وجه اليقين ككل أرقام الأقليات. وأياً ما كان، تظل كتلة الولايات المتحدة هي أضخم حشر يهودي في العالم.

ثم يأتي الاتحاد السوفيتي كالثاني في العالم بسدس مجموع اليهود أو حوالي 16%. وبهذا تكون الولايات والاتحاد هما الدائرتين الكبيرتين الآن في محيط اليهودية العالمية اللتين ورثتا دائرتي شرق أوربا والراين في القرن الماضي، أو قل إن دائرة الراين الصغرى هاجرت وعبرت المحيط لتصبح هي مركز الثقل الطاغي. ويلي الاتحاد إسرائيل الصهيونية في فلسطيننا المحتلة لتكون الثالثة في العالم، وهي لا تضم من يهود العالم إلا 13%.

وماذا كانت هذه هي أرقام أواخر الخمسينات، فقد نشرت أخيراً أرقام حديثة عن تعداد اليهود في الدول الثلاث السابقة يمكن على أساسها أن نرى تغيراً ملحوظاً في أوزانهم. فالكتاب السنوي اليهودي الأمريكي يقدر عدد يهود العالم في أول 1966 بنحو 13.4 من المليون نسمة، منهم 5 ملايين في الولايات المتحدة أي بنسبة 37%، 2.486.000 في الاتحاد السوفييتي بنسبة 18%، 2.229.000 في إسرائيل بنسبة 16%. وبمقارنة هذه الأرقام والنسب بأرقام أواخر الخمسينات يرجح لدينا أن بعض التغييرات هي في الحقيقة مجرد تصحيحات لأرقام تقريبية سابقة. والمهم على

أية حال أن نسبة الولايات المتحدة قد انخفضت قليلاً، بينما ارتفعت نسبة الاتحاد السوفييتي، وارتفعت نسبة إسرائيل ـ لا شك بالهجرة ـ أكثر وأكثر.

هذا إذن عن "الثلاثة الكبار" ـ كما يقال ـ في اليهودية العالمية. ولكن ثمة بعدها دول تتدرج من حوالي نصف المليون إلى ثلث المليون إلى ربع المليون، هي على الترتيب بريطانيا (1/2) ثم الأرجنتين وفرنسا (1/3) ثم كندا ورومانيا (1/4). ثم تلي بعد هذا 5 دول يزيد عدد اليهود في كل منها عن المئة ألف، هي على الترتيب، المغرب فالجزائر فالبرازيل فالمجر فجمهورية جنوب أفريقيا، مع ملاحظة أن الهجرة أخيراً من المغرب والجزائر قد هبطت بأعداد اليهود فيهما كثيراً جداً حتى خرجت بهما من هذه المجموعة.

من هذا التصنيف الحجمي لا يمكن إلا أن نصل إلى نتيجة بالغة الأهمية إن لم تكن ثورية حقاً. فإذا نحن أضفنا مجموع الثلاثة الكبار لاتضحت لنا حقيقة بالغة الخطورة وهي أن 8.9 مليون يهودي من 13 مليوناً أو نحو 69% تحتشد جميعاً في ثلاث فقط من دول العالم كذلك إذا نحن اعتبرنا الدول الثلاث عشرة فئة + 100 ألف لوجدناها تحتكر وحدها 11.207.000 يهودي من المجموع العالمي البالغ حينذاك 12.035.000 أو زهاء 93% فما معنى هذا؟

قد يكون اليهودي عالمي التوزيع، بمعنى أنه لا تكاد تخلو دولة في العالم منه، وقد يكون توزيع اليهودية على طرف النقيض من توزيع الإسلام الجغرافي الذي ينفرد من بين الأديان بمحيط مطلق يكاد يكون متصلاً بلا انقطاع، ولكن ليس صحيحاً أن "تحت كل حجر في العالم يهودياً"... إنما

الأصح أن نقول إن توزيع اليهود العالمي توزيع رشاش متطاير في معظمه يتحول أحياناً إلى "تراب" رمزي بحت، بينما أن 69% أو 71% من يهود العالم يتكدسون كقلة من "الأحجار الضخمة" في 3 دول، 93% في 13 دولة. وبينما تتراوح نسب اليهود إلى عدد السكان الكلي في دول الجاليات الكبرى (ما عدا فلسطين المحتلة) بين 3% كما في الولايات المتحدة وبين 1%، تتأرجح في بقية دول العالم حوالي 0.1، 0.2، 0.3، 0.4% في الأعم الأغلب، وكثيراً ما تكون أقرب إلى الصفر.

أما إذا عدنا إلى التوزيعات الإقليمية، فسنجد الصورة أوضح ما يكون، ولكن أيضاً أشد ما يكون ثورية، في أوربا، فثمة دائرتان أو بالأحرى الآن نواة ضخمة ونوية ثانوية. النواة في شرق أوربا (3 ملايين): الاتحاد السوفييتي بمليونين وربع المليون، ثم رومانيا بربع المليون، والمجر بنصف ذلك. ومن الواضح أن هذه النواة تقلص ضامر لنواة القرن الماضي الثقيلة بعد أن خفت في القلب وقلمت أطرافها في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا والنمسا بفعل الهجرة والحرب وعمليات التصفية النازية. أما النوية (أقل من المليون) ففي بريطانيا وفرنسا أساساً، وهي بهذا قد ورثت نوية الراين القديمة التي تبددت الآن تماماً وأصبحت ألمانيا مثل بولندا من أقل دول أوربا يهوداً، وخارج هاتين الدائرتين ينتشر اليهود في شبه تجانس على نحو ما، ببضعة آلاف أو عشرات الآلاف لا أكثر في بقية واحدات القارة. وبهذا وذاك جميعاً نرى أن توزيع اليهود وكثافتهم تقل سريعاً في أوربا شمال الألب من الشرق إلى الغرب.

وعلى العكس من هذا انحدارهم gradient على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط في شمال أفريقيا، فهم يقلون عدداً ونسبة كلما اتجهنا من الغرب إلى الشرق، من المغرب إلى الجزائر إلى تونس إلى مصر. ونطاق يهود أفريقيا العربية، الذي كان يزن قبل الخروج الأخير نحو نصف المليون، يكاد يكون المجال اليهودي الوحيد في القارة باستثناء الطرف الجنوبي الأقصى في جمهورية جنوب أفريقيا حيث جذبهم الاستعمار السكني (110 آلاف). وكلا المجالين ـ سيلاحظ ـ خارج مداري بوضوح. أما بين المدارين فقليلة جداً هي الوحدات التي تعرف اليهود قدامى أو جدداً، وقليلة هي جداً أعداد اليهود فيها على أية حال ـ كأثيوبيا وبعض وحدات الاستعمار الأوربي السابق في مثلث القارة الجنوبي.

أما في آسيا العربية ـ باستثناء فلسطين المحتلة منذ قيام إسرائيل ـ فقد أصبح اليهود مجرد بقايا لا وزن لها في أي مكان، بضعة آلاف أو مئات في بعض وحدات منها وليس كلها. أما قبل ذلك فكانت أهم تجمعاتهم في العراق (100 ألف) واليمن (70 ألفاً) بينما خلت وتخلو منهم بقية الجزيرة العربية. واليوم تأتي إيران كأكبر جالية يهودية في آسيا خارج العالم العربي. (80 ألفاً) تليها الهند (25 ألفاً) ـ أما يهود تركيا فمركزون عملياً في أسطنبول على البر الأوربي لا الآسيوي. وربما أتت بعد ذلك جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية بجالياتها اليهودية القديمة، وجمهورية بيروبيدجان في الشرق الأقصى السوفيتي بمستعمرتها الجديدية. وعدا هذا فبقية آسيا "خالية" من اليهود إلا من أعداد رمزية بحتة هنا وهناك.

أما في العالم الجديد فإن اليهود يتركزون أساساً في الشمال الشرقي، الربع الغني، ثم تلي نوية ثانوية في الغرب الأوسط وولايات الهاري. أما في الجنوب عامة وولايات الجبال فيقلون كثيراً. وبالمثل في أمريكا اللاتينية يتركز اليهود على السواحل الشرقية أولاً، وفي النطاق دون المداري أو خارج المداري ثانياً، كما في البرازيل والأرجنتين. ومن هذا النمط، وإذا تذكرنا معه انتقال أحد مركزي ثقل اليهود في أوربا من وسطها إلى غربها، يمكننا بسهولة أن نتصور الكتلة الكبرى من اليهودية العالمية تتجاذب كما لو مغناطيسياً نحو سواحل المحيط الأطلسي شرقية وغربية. فإذا ما أضفنا إلى ذلك نمط التوزيع في أمريكا الجنوبية ثم تركز يهود شمال أفريقيا تقليدياً في المغرب، لجاز لنا أن نقرر أن الأغلبية العظمى من يهود العالم تحف بشواطئ ذلك المحيط، بعد أن كانت حتى القرن الماضي تتركز أساساً في القلب القاري للعالم القديم.

طفيليات المدن

تلك بصورة عامة الخطوط العريضة في توزيع اليهود على سطح الأرض. غير أننا ننسى نصف الحقيقة إذا نحن أغفلنا بها سكنى المدن.

فاليهود بالدرجة الأولى سكان مدن، وسكان مدن كبرى بالدقة، ثم هم إلى ذلك سكان عواصم بالتفضيل والامتياز. وأنت حين تتكلم عن يهود دولة ما فأنت تتكلم في الحقيقة عن يهود العاصمة ومدينة أو اثنتين إلى جوارها. وهذه حقيقة طاغية وأبدية طوال تاريخ اليهود قديماً كان أو حديثاً ولا تتبلور كما تتبلور في وقتنا هذا. والأمثلة تغني عن الحصر، ولعل أوضحها في الذهن المثال الأمريكي.

فمدينة نيويورك الكبرى تضم وحدها أكثر من مليونين ونصف مليون يهودي، أي أكثر من نصف يهود الولايات المتحدة وما يكاد يقارب كل يهود الاتحاد السوفيتي. وهي بذلك أكبر "أرساب" يهودي في أي نقطة منفردة في العالم: إنها تل أبيب الكبرى، بل إنها هي إسرائيل الكبرى. وبقية يهود الولايات موزعة بين المدن الكبرى بصرامة. وتدل الدراسات السكانية في الولايات المتحدة على أن عدد اليهود في المدن

يتناسب تناسباً طردياً مع أحجامها، فهم أقوى ما يكون في نيويورك تليها على الأرجح شيكاغو، بينما لا وزن لهم مثلاً في بوسطن.

هل تريد مزيداً من الامثلة؟ في كندا حيث كل اليهود 233 ألفاً نجد 77 ألفاً في تورونتو، 65 ألفاً في مونتريول. في باريس 175 ألفاً أي 50% من كل يهود فرنسا البالغين 350 ألفاً. في لندن 280 ألفاً من أصل مجموع 450 ألفاً. مدينة تونس 55 ألفاً بينما أن دولة تونس 80 ألفاً. أسطنبول 50 ألفاً في حين أن كل يهود تركيا 60 ألفاً. في جمهورية جنوب أفريقيا 110 آلاف، 50 ألفاً منهم في جوهانسبرج وحدها. وفي أستراليا يتركز في مليون 25 ألفاً وفي سيدني 22 ألفاً من مجموع كلي قدره نحو 57 ألفاً. وهكذا وهكذا. حتى في فلسطين المحتلة تحول المغتصبون الدخلاء المقتلعون إلى سكان مدن: فمنذ بضع سنين كان 75.9% من سكان إسرائيل يتكدسون في المدن، وكانت بذلك ثالثة دول العالم بعد اسكتلندا ثم إنجلترا وويلز في درجة المدنية urbanism. والمؤكد أن هذه النسبة قد زادت منذ ذلك الوقت، ومن المؤكد كذلك أن العالم لا يعرف دولة قزمية بهذه الدرجة الصارخة المنحرفة من المدنية. ولكنها ببساطة "حثالة مدن" العالم انصبت واستقطبت في دولة..

والمعنى المباشر لهذا كله أن اليهود، وقد رأينا أن توزيعهم الفعلي ليس عالمياً بالصورة المطلقة المرسومة في أذهاننا، أبعد شيء عن التوزيع "الغطائي" الشامل وإنما هم أدنى إلى التوزيع النقطي البحت. الصورة المجازية ليست نهر مجرة مرصعاً عالمياً بمستعمرات اليهود، ولكنها يمكن أن تكون منثوراً من

النـوى والنـويات السـديمية هنـا وهنـاك. علـى أن هـذا إن حـدد مجـالاتهم الجغرافية، فإنه عادة ما يجعل منهم أقليات هامة أو خطرة في بيئاتهم المدنية تلك، بل قد يؤلفون الأغلبية فيها أحياناً كما عرفت بالفعل بعض مدن بولندا في القرن الماضي، مما يفسر سيطرتهم المادية والسياسية من ناحية، ويضخم شعورهم بالذات من ناحية أخرى، وبالتالي يفاقم من شدة التعصب ضدهم والاضطهاد من ناحية ثالثة..

إلام نرد هذه الظاهرة المميزة ـ إلى غريزة "طفيلية" استغلالية في طريقة الحياة اليهودية، أم إلى قوى ضغط خارجية؟ يرى البعض أن قوانين العصور الوسطى حرمت على اليهود امتلاك الأرض وفرضت عليهم حياة "الجيتو". ولكن البعض الآخر يرى أن اليهودي مرتبط بالمال والتجارة والسمسرة والربا أبداً، وأنه يكره العمل اليدوي الشاق أو في الخلاء، يكره بذل الجهد الجسماني بعامة، ويفضل أن يعيش بعقله لا بعضله brain not brawn من هنا ـ وليس من هناك ـ يبتعد عن الزراعة أولاً عن الصناعة إلى حد بعيد، ولذا لا يكثر في المناطق الزراعية أو الصناعية ويتقاطر على العكس في المدن حيث الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات المالية والمصرفية...إلخ.

والواقع أنه ليس بالعالم كله مجتمع يهودي زراعي واحد يستحق الذكر، وباستثناء بعض خلايا معزولة في الروسيا القيصرية وبولندا القديمة لا نعرف في التاريخ الحديث أن اليهودي ارتبط بالزراعة. وبالمثل في التعدين والصناعة: فمن الغريب أن الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة ـ على شدة تباين وتناقض مذاهبهما ـ لا يعرفان يهودياً واحداً من عمال المناجم بالذات!

وعلى العكس من ذلك كله التجارة والمهن الحرة، فقديماً كانت كلمة اليهودي مرادفة لكلمة "التاجر"، وحديثاً يحتشد اليهود في الوظائف الحرة كالطب والمحاماة والتجارة والمال والصحافة حتى لنجد، على سبيل المثال، أن نصف مجموع الأطباء والمحامين في ولاية نيويورك ـ ودورها المحوري في الاقتصاد الأمريكي تلخصه ببلاغة الكناية إشارة إلى ناطحة السحاب المشهورة! ـ نجد نصف هذا الساخرة "بالولاية الإمبراطورية Empire State"، المجموع من اليهود.

ومن الواضح من هذا كله أن طراز حياة اليهودي هو الأعمال غير المنتجة والوظائف الطفيلية. ومن المحقق أن هذا سبب أصيل وعميق في كراهية الأمم لهم، ولعله ـ أكثر من التعصب الديني البحت ربما ـ المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم. واليهودي بهذا كله قد أصبح مركباً اقتصادياً ـ اجتماعياً شديد الوضوح حتى ليضرب به المثل وحتى اتخذ علماً ونموذجاً على حالات مشابهة: كذاك مثلاً يطلق على الجاليات الصينية التاجرة خارج الصين "يهود جنوب شرق آسيا"، وكذاك يوصف الهنود في مدن ساحل أفريقيا الشرقية "بيهود شرق أفريقيا"! ومهما يكن من أمر، فإن الحقيقة تظل قائمة من أن اليهود سكان مدن أساساً، أكاد أقول "طفيليات مدن" أساساً، وتظل لها نتائجها الاجتماعية والجسمية التي ستنعكس كما سنرى على مشكلتهم الأنثروبولوجية.

مجتمع الجيتو

لقد رأينا حتى الآن أن توزيع اليهود توزيع كوزموبوليتاني أولاً، ومتروبوليتاني ثانياً، ولكن يبقى أخيراً أن نضيق بؤرة عدستنا أكثر وأكثر لنرى الخلية النهائية والأساسية في توزيع اليهود. إنها الجيتو ghetto، حي اليهود أو معزلهم في المدينة! فطوال عصور التاريخ، وفي كل البلاد والأقاليم، ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء بالعزلة السكنية في حي خاص من المدينة: الجيتو كما يقال له في كثير من بلاد أوربا وأمريكا، أو حارة اليهود في ألمانيا Judengasse وكما نقول نحن في مصر، وهو اليوديريا في إسبانيا الوسيطة Juderia، أو هو الملة mellah كما يقال في مدن المغرب العربي، أو القاع قاع اليهود كما في مدن اليمن.

وكثيراً ما كانت هذه الوحدة الخلوية اليهودية تغلف بحائط خاص داخل المدينة، وأحياناً كان الحي برمته يقام خارج أسوار المدينة الأم ذاتها إمعاناً في العزل، وفي الغالب الأعم يؤلف حي اليهود قطاعاً من الأحياء الفقيرة المنحطة من المدينة، ويكفي في هذا الصدد أن نذكر كمجرد مثال حي ستيني وهوايتشابل Stepney Whitechapel في الأيست آند نطاق الفقر الشهير في شرق لندن. ومع ذلك فقد كان أغنياء اليهود يتعدون هذا

الحصار ليعيشوا في الأحياء الراقية غير اليهودية، كما أن تطور الحياة الاجتماعية يقلل الآن كثيراً من صرامة عزلة الجيتو.

ومع ذلك وعلى الفور نفهم أن العزل السكني residential segregation هو قانون اليهودي في المدينة وكثيراً ما يرتد هذا العزل إلى قوانين الدول والشعوب التي يعيش اليهود بين ظهرانيها، يفرضونه بالقوة على اليهود تباعداً عنهم واستعلاء عليهم كفئة من المنبوذين أو الباریاه Pariah كما يعبر ماكس فيبر، وكذلك إحكاماً للرقابة عليهم وحصراً لأخطارهم. ولكن كثيراً أيضاً ما يرجع هذا إلى صنع اليهود أنفسهم، سعياً منهم كأقلية مسحوقة إلى التركز والاحتشاد في نقطة واحدة ضماناً للحماية في حظيرة واحدة. لقد بدأ اليهود رحلاً في عصر التوراة، وظلوا رحلاً في عالم الشتات، وككل قطعان الرحل أبوا إلا أن يعيشوا في حظائر مسورة داخل مدن الشتات..

الأصل الجنسي لليهود

حتى الآن لم نعرض إلا لتاريخ اليهود عبر الزمان ولتوزيعهم في المكان، دون أن نتعرض للجانب الأنثروبولوجي البحت أصلاً وجنسياً. وقد آن لنا أن نسائل أنفسنا: من هم اليهود وأين يقعون في العائلة البشرية؟ ما العلاقة بين يهود التوراة ويهود اليوم، وإلى أي مدى ينتسب يهود القرن العشرين بعد الميلاد إلى بني إسرائيل القرن العشرين قبل الميلاد؟ وثمة علامات استفهام أخرى تنبع بالضرورة من تلك: هل ثمة من نقاوة جنسية يمتاز بها اليهود؟ ما مدى الصحة في القول بأنهم والعرب "أبناء عمومة"؟ على هذه الأسئلة يتوقف كثير من المزاعم والادعاءات السياسية، وعلى إجاباتها يتوقف الرد عليها وتفنيدها.

والواقع أننا ينبغي أن نلتفت بوعي إلى أن هناك علاقة حتمية بين الدراسة الأنثروبولوجية الصرفة وبين الجانب السياسي كما يتمثل في الأطماع السياسية، كما ينبغي أن ندرك أن الصهيونية السياسية تسخر الأبحاث الأنثروبولوجية وترتب نتائجها مسبقاً بحيث تخدم دعاواهم الاستعمارية في فلسطين، وصميم القضية أنهم، إذ يبحثون عن مبرر من الجنس للعودة إلى "أرض الميعاد" يشرع اغتصابهم لفلسطيننا العربية، يركزون بؤرتهم على "النقاوة

الجنسية" لليهود، بمعنى أنهم بعد أن يخرجوا ببني إسرائيل من فلسطين إلى الشتات يلحون في أنهم ظلوا نقاة بمنأى عن الاختلاط الدموي مع الشعوب التي انتشروا بينها (الجوييم كما يسميهم اليهود، أو الجنتيل Gentiles كما يسمون هم أنفسهم، أو "الأمم" كما نقول نحن العرب)، وأن يهود اليوم أينما كانوا هم بذلك النسل المباشر لبني إسرائيل التوراة، ومن ثم فهم في آن واحد مجموعة جنسية واحدة، وقومية تاريخية واحدة، مثلما هم طائفة دينية واحدة. ومن ذلك جميعاً يخلصون، لا إلى تدعيم أسطورة "الشعب المختار"، الشعب النقي الخالص فحسب، وإنما كذلك وفي الدرجة الأولى إلى تدعيم حق العودة المزعوم واغتصاب فلسطين.

بهذا تصبح قضية النقاوة الجنسية قضية محورية في المناقشة بالضرورة. والحقيقة أن فكرة النقاوة هذه منتشرة وشائعة إلى حد غير عادي، لا في التقاليد الدارجة عند رجل الشارع الأوربي فحسب، ولكن حتى بين بعض من علماء الأجناس أيضاً ـ لا شك لاعتمادهم على كتابات اليهود أنفسهم عن أنفسهم، وهي الكتابات التي تبدأ من فكرة قبلية مسبقة موجهة إلى أهداف بعيدة غير موضوعية. ولكن هناك ـ لحسن حظ العلم ـ من وقف طويلاً عند المشكلة باستقلال وموضوعية، وأثبت أن دعوة النقاوة أبعد شيء عن الحقيقة والواقع.

وبهذا نكون إزاء مدرستين أو اتجاهين: اتجاه يرى اليهود متميزين مختلفين في صفاتهم الجنسية عن السكان المحيطين مهما وأنى كانوا، وبالتالي يؤلفون عبر العالم وحدة جنسية أو نمطاً أثنولوجياً متفرداً بارز الوضوح.

واتجاه آخر يراهم صورة مقربة من السكان المحيطين في كل مكان وانعكاساً لتركيبهم وتكوينهم الجنسي، ومن ثم لا يؤلفون إلا وحدة دينية لا جنسية أو جينية. وبين الأنثربولوجيين، يمكن أن نتخذ كون Coon رمزاً بدرجة أو بأخرى للاتجاه الأول، بينما يقف ربلي Ripley علماً على الاتجاه الثاني.

ونحن هنا سندير مناقشتنا بالفعل حول هذه الفكرة الفاشية فكرة النقاوة، فنبدأ أولاً بإعادة تركيب الصورة والأصل الجنسي ليهود التوراة في فلسطين كنمط أثنولوجي محدد، ثم نتتبع الصفات والملامح التشريحية والجسمية لليهود في المهجر والشتات لنرى إلى أي حد تتفق مع ذلك النمط الأبوي الأصلي القديم. وفي هذا المجال سنحاول أن نعزل أولاً تلك الصفات والملامح التي تتكيف بالبيئة طبيعية أو اجتماعية بحسبانها عناصر مكتسبة لا تكشف أصلاً أو عرقاً، فلا يبقى بعدها في البؤرة إلا الصفات الوراثية الدفينة الحقة التي يمكن لها وحدها أن تقرر وتحدد مسافة الخلف أو القرب بين يهود التوراة ويهود اليوم، ومن ثم مدى النقاوة فالاستمرارية الجنسية بينهما. وبذلك كله نستطيع أن نحدد موقفنا من النظريتين الأساسيتين نظرية النقاوة ونظرية الاختلاط.

الاجماع بين الأنثروبولوجيين كامل على أن يهود عصر التوراة في فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفاتها التي نعرف ونرى اليوم من سمرة في الشعر وتوسط في القامة وطول إلى توسط في الرأس وقد اختلط يهود بني إسرائيل في فلسطين مع الجماعات الأخرى السابقة لها

واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين، وتمثلوا كثيراً من دمائهم وابتلعوا أعداداً منهم حتى أصبحوا هم أنفسهم مجموعة مركبة عبرية بعامة ولكن تلك الجماعات نفسها لم تكن لتخرج عن نفس السلالة الجنسية القاعدية المتوسطية، ومن ثم لم يغير الاختلاط معها النمط الأساسي لليهود في قليل أو كثير.

والأدلة المباشرة لدينا محدودة ولكنها مقنعة. فثمة قليل من الجماجم عثر عليها في فلسطين وخارجها تعود إلى عصر سليمان وبعده، وتشير إلى سلالة البحر المتوسط مع قلة نادرة من حالات عرض الرأس. وأهم من ذلك رسوم وتماثيل قدماء المصريين والبابليين التي تحدد كل الجماعات والعناصر التي ذكرنا ومن بينها يهود فلسطين الأوائل التي لا تختلف عن ملامح العموريين والساميين. فبينما يبدو الفلسطينيون كالأوربيين من سلالة البحر المتوسط ببشرة فاتحة اللون، يبدو العموريون طوال الوجوه، ببشرة مصفرة وأنوف محدبة، ويبدو الساميون ـ الذين يشملون لا شك الكنعانيين ـ بجباه مائلة وأنوف مبالغ فيها كأنوف العرب والعراقيين اليوم. وعلى هذا يمكن القول إن يهود فلسطين أيام داود كانوا سمراً من سلالة البحر المتوسط، على عدة أنماط، واحد منها على الأقل طويل الوجه أقني الأنف. وإذا أضفنا دلالة التوراة فيمكن أن نردف قصر القامة، ففي التوراة يصف سفر الإعداد الإسرائيليين بالمقارنة إلى العموريين أبناء أناك بأنهم "as grasshoppers in their own sight" ويعنينا هنا أن نقف قليلاً عند عنصرين بعينهما وهم العموريون والحيثيون فثمة نظرية قديمة كانت ترى في العموريين (الشعب

الأحمر) عرقاً "نوردياً" أشقر، وكانت ترد ما في يهود اليوم من شقرة إليهم. ويبدو أن أصل هذه النظرية يرقى إلى مؤرخ الشرق القديم سايس Sayce وثمة نظرية قديمة كذلك كانت تعد الحيثيين من الأرمينيين Armenoids عراض الرؤوس، وإليهم كانت ترجع عامل عرض الرأس وتحدب الأنف في يهود اليوم. ولعل أول من روج لهذه النظرية هو ينسن Jensen.

وهاتان النظريتان اللتان كان هادون من أنصارهما يمكن الترتيب على أساسهما للزعم بأن اليهود يبدؤون في موطنهم الأول وهم مختلطون ويمثلون أكثر من نوع أو نمط جنسي محلياً، وبالتالي يمكن على أساسهما تفسير اختلافات الصفات الجنسية ليهود اليوم داخل حدود نظرية النقاوة الجنسية. غير أن كون يثبت خطأ النظريتين نهائياً.

فلم يكن العموريون شقراً أو حمراً بل صفراً، ولا كان الحثيون أرمينيين بصورة ما، بل ليس هناك دليل تاريخي على اختلال هام لليهود بهم.

لنحاول الآن أن نبحث عن يهود معاصرين يمكن اعتبارهم بغير شكوك استمراراً نقياً لبني إسرائيل عصر التوراة حتى نقارن بين الطرفين. ليس بالعالم اليوم مجتمع يهودي واحد أفلت من الاختلاط البيولوجي مع غيره من المجتمعات اليهودية منذ أولى مراحل نشأتها. ولهذا السبب لسنا نستطيع أن نفترض أن أي جماعة من اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين تمثل تمثيلاً صادقاً يهود فلسطين أيام المسيح. ولكن لعل السامريين هم المجموعة الوحيدة من اليهود التي يتفق الجميع على أنها ظلت في فلسطين طوال التاريخ حتى يومنا

هذا في عزلة كاملة وتزاوج داخلي ضيق وفي نقاوة لا شك فيها، وأنهم أكثر من أي مجموعة أخرى يمثلون العرق اليهودي الفلسطيني الأصلي القديم.

هم في قرية من قرى نابلس يقيمون، وعددهم اليوم لا يعدو المئة أو المئتين، أي أنهم يتجهون من قديم نحو الانقراض المحقق، هم متوسطو الرؤوس، الوجه طويل ضيق، ولكن القامة أطول من المألوف المعروف عن اليهود، كما يبدون نسبة من اللون الفاتح أكبر من المعهود في سلالة البحر المتوسط، ولو أن السمرة تظل سائدة. وبالنسبة ليهود فلسطين بعامة في أوائل هذا القرن ـ أي قبل هجرة الصهيونية ـ فالقامة قصيرة، والرأس متوسط والوجه ضيق كثيراً، والأنف الأقني يسود بين نحو 80% من العينة المدروسة، أما الشقرة فلا وجود لها.

صفات اليهود الجسميّة

لعل الصورة الجسمية لليهودي القديم، يهودي فلسطين قبل المسيح، قد اتضحت معالمها العامة لنا الآن. ونستطيع إذن أن ننطلق في جولتنا حول العالم لنقارن إليها صفات يهود اليوم. ولنبدأ ببعض الصفات والملامح الأكثر شيوعاً في التصور الدارج عن اليهود، ولكن الأقل مغزى في الدلالة الأنثروبولوجية، لنبدأ بالقامة وما يتصل بها من محيط الصدر، ثم بملامح الوجه عامة والأنف خاصة.

من الشائع جداً عن اليهودي أنه قصير القامة، إن لم يكن حقاً كالقزم أحياناً. وهذا صحيح علمياً ـ أو بالدقة كان ـ إلى حد كبير. فالدراسات المترية تظهره في أغلب الحالات في كل الدنيا أقصر من غير اليهود بضع بوصات تزيد أو تقل فقط بحسب طول القامة السائد حوله. وفي المتوسط لا تتعدى تلك القامة عند اليهودي الناضج قامة صبي في السادسة عشرة من الجنتيل الأمريكي. وحيث ترتفع نسبة اليهود عددياً ـ كما كانت الحال في بولندا في القرن الماضي ـ يخفضون بوجودهم من مستوى أو متوسط القامة العام بنسبة وجودهم وبنسبة طول الجنتيل. ولا تكاد تعرف الأنثروبولوجيا استثناء لهذه القاعدة إلا حالات نادرة: ففي يهود التركستان تتساوى القامة

مع السكا المحيطين من التاجيك، وفي أوديسا وريجا وجد اليهود أطول من المسيحيين، وفي تونس وجدوا أطول من العرب، وقد رأينا منذ قليل أن السامريين ليسوا أطول من جيرانهم الفلسطينيين فحسب ولكنهم يعدون طوال القامة عن أي مستوى.

هل يمكن أن يعد قصر القامة إذن صفة جنسية أصيلة من المركب اليهودي؟ كلا على الأرجح، رغم ذلك ورغم إشارة التوراة إلى الظاهرة. فمن ناحية لا يمكن أن نتكلم عن وحدة النمط اليهودي من حيث القامة، لأنه برغم سيادة القصر فإن هناك تفاوتاً محسوساً بين مجتمعات اليهود المختلفة، وكذلك يتراوح أشكناز أوربا فيما بينهم كثيراً. ومن ناحية أخرى فالثابت الآن علمياً بلا مراء أن القامة صفة جسمية مرنة مطاطة تتكيف بالبيئة الطبيعية والاجتماعية، بالصحة والتغذية، وأنها صفة مكتسبة وظاهرة اجتماعية مثلما هي، أو أكثر مما هي، وراثية جامدة. وأغلب الظن أن قصر قامة اليهود هو وليد الجيتو وحياة التوتر والخوف من الاضطهاد. كما أن من المعتقد أن تفشي عادة الزواج المبكر جداً بين اليهود حتى وقت قريب كانت مسؤولة عن نوع من الانحطاط الجسمي انعكس على القامة. أما حين وحيث تزول هذه الظروف البيئية فإن قامة اليهودي تنطلق لتقترب من قامة الجنتيل كما في حي الوست آند الراقي بلندن وكما حدث حديثاً في الولايات المتحدة. ومن قبل كان اليهود أطول قامة في أوكرانيا الخصبة منهم في ليتوانيا الفقيرة المجدبة.

عدا القامة الضئيلة، يوصف اليهودي عادة بضيق الصدر. والأدلة العلمية تؤكد مرة أخرى الفكرة الدارجة فتجد محيط الصدر أقل كثيراً من المتوسط العام عند الجنتيل، وسعة الرئتين ضئيلة والقفص الصدري مسحوباً مسطحاً. والقياسات من مختلف أجزاء العالم لا تختلف في هذا الصدد. ولكن مرة أخرى نعود فنجد أن هذه نتيجة طبيعية لنمط الحياة وللبيئة إلى جانب الحرفة. فالحرف الداخلية التي فرضها الجيتو على اليهود، لا سيما الحرف اليهودية التقليدية منها كالخياطة والصياغة وصناعة الأحذية.. إلخ، ترتبط وثيقاً بتلك الظاهرة. ولذا فإنها ـ كالقامة ـ لا يمكن أن تكون صفة جنسية أصيلة ولا دليلاً قاطعاً له وزنه في تحديد الأصول الوراثية لليهود. وفي الولايات المتحدة حيث تحسنت بيئة اليهود جداً تختفي الظاهرة تماماً.

وننتقل بعد هذا إلى جانب يبدو على السطح أكثر خطورة ومغزى، ولعله أكثر ما يقال عن اليهود شيوعاً عند الرجل العادي، وأعني به ملامح الوجه أولاً والنظرة العامة أو "السحنة" ثانياً. فالشائع الدارج أن اليهودي يتصف تقليدياً بالسمرة (والمقصود هنا سمرة الشعر والعين لا البشرة، أي برونت)، ثم بالأنف الأقني الضخم، والعيون المنتفخة، والشفاه الممتلئة. أما عن النظرة العامة فالمقول الشائع والمتداول هو أن هناك "نظرة يهودية" أو "سحنة يهودية" بطريقة ما تميز اليهودي لأول وهلة ويعرفها هو جيداً عن نفسه كما يعرفها الجنتيل. فما مدى صحة هذه الأفكار الدارجة، وما قيمتها في تحديد نقاوة وأصل اليهود؟.

أما أن اليهودي أسمر الشعر والعين، فحقيقة تؤكدها الدراسة العلمية، ولكن لا كقاعدة عامة مطلقة وإنما كاتجاه سائد. وفي أجزاء كثيرة من أوروبا وجد أن نسبة السمر بين اليهود تصل أحياناً إلى ثلثي العينة المدروسة، وأن هذه النسبة تعادل ضعفي مثيلتها بين الجنتيل. (ونسبة السمرة دائماً أعلى ـ بالمناسبة ـ بين اليهوديات منها بين اليهود) ومع ذلك ففي مناطق معينة من بولندا وجد أن نحواً من ثلث إلى خمسي اليهود ذوو شعر فاتح. كذلك فمن الثابت أن هناك عنصراً أوضح من الشقرة بين اليهود الشرقيين، يجنح بهم إلى اللون الأصهب rufous وحتى بين السفارديم هناك كثير من الشقر. وتبدو الشقرة واضحة كذلك في يهود الألزاس واللورين، وأوضح وأوضح في يهود إنجلترا.

نصل من هذا إلى أن سيادة السمرة بين اليهود ليست إلا نصف الحقيقة، وربما كان أهم منها أنه ليس هناك وحدة لونية بين يهود العالم من ناحية، ومن ناحية أخرى أن تفاوت لون الشعر والبشرة بينهم ما بين شقرة وسمرة إنما هو ظاهرة لا يمكن أن تفصل عن لون السكان المحيطين بدرجة أو بأخرى. فمن حيث الشعر والعين، لا نجد في فلسطين عامة شقرة ما (قبل إسرائيل) بينما يبدي قلة من السامريين بعض شقرة خفيفة، وفي العراق ودائرة القوقاز تسود السمرة، هذا بينما في شمال أفريقيا تحدث الشقرة بنسبة 5%، ترتفع إلى نسبة السدس بين سفارديم سالونيك وإسطنبول، وفي القرم 75% سمر من البرونت والباقي من لون فاتح، ثم بين أشكناز أوربا تهبط نسبة السمر إلى 55% وتتحدد نسبة الشقر بنحو 10% والباقي لون فاتح،

حتى إذا ما وصلنا إلى يهود ليتوانيا كان 55% من لون فاتح. فهذه إذن سلسلة تصاعدية يبدي لون اليهود فيها معامل ارتباط وثيق مع لون السكان المحيطين السائد. ويرى كون أن أشكناز أوربا قد حققوا لأنفسهم توازناً ثابتاً بطريقة ما في لون الشعر والعين: ففي البلاد التي يغلب على الجنتيل فيها الشقرة أو الشقرة على السمرة نجد اليهود أميل إلى السمرة نسبياً، وفي البلاد التي تسود السمرة فيها بين الجنتيل مثل رومانيا فإن اليهود تميل إلى أن تكون أكثر شقرة. وسواء اتفق هذا الرأي مع معامل الارتباط الواضح في السلسلة السابقة أو تعارض معه، فالشيء المؤكد أن اليهود ليسوا متجانسين لوناً.

أما عن لون البشرة نفسها، فالفروق بين اليهود ليست أقل حدة، وليس ثمة نمط موحد البتة. فهم بين سفارديم البحر المتوسط والشرقيين بيض مشربون بسمرة خفيفة بعامة. وهم كذلك في التركستان حيث يشبهون في لونهم لون جيرانهم تاجيك الجبال مثلما يشبهونهم في غزارة شعر الجسم. أما في اليمن فهم إن بدوا أفتح قليلاً من اليمنيين فما ذاك إلا لحياتهم في الظل بعيداً عن العمل في الخلاء. أما في أوربا فلا يختلف الأشكناز عن الأوربيين في لون البشرة.

وعلى النقيض من هؤلاء اليهود البيض، فثمة "اليهود السود الذين يقعون خارج التقسيم الثلاثي لليهود إلى أشكناز وسفارديم وشرقيين. من هؤلاء الفلاشة Falasha في شمال الحبشة، وهم إلى حد كبير متزنجون Negroid ويتكلمون لغة الأجاو الكوشية القديمة. ومنهم كذلك في أفريقيا الدجاتون Daggatuns في جنوب الصحراء الكبرى. أما في آسيا فهناك

اليهود السود من التأميل في كوتشين بجنوب غربي الهند، وهم يسمون هناك هكذا تمييزاً لهم عن جيرانهم "اليهود البيض" الذين ينحدرون من أصل فلسطيني منذ أيام الشتات الأولى. وربما جاز لنا أن نضيف إلى نماذج اليهود السود مجموعات في أمريكا اللاتينية من الزنوج أو الخلاسيين الذين اعتنقوا اليهودية أو اختلطوا بيهود مهاجرين.

ننتقل الآن إلى الأنف. فأما الأنف الأقني المحدب ـ الذي ألصق باليهود وأشاعه رسام الكاريكاتير حتى صار علماً: "الأنف اليهودي" ـ فليس في الحقيقة صفة يهودية. فالملاحظات الأنثروبولوجية تثبت أولاً أنه ليس منتشراً بين اليهود بدرجة خاصة أو غير عادية، وأنه ثانياً منتشر بين غير اليهود بحرية وبلا حدود. فبين يهود بولندا لم تزد نسبة حدوثه عن 9% من العينات، وهي نفس نسبة البولنديين، ولو أن النسبة ترتفع في غاليسيا إلى 30%. وفي مدينة نيويورك لم يعثر على الأنف "اليهودي" إلا بين 15% من ذكور اليهود الراشدين.

أما الشكل الأكثر حدوثاً بين اليهود فهو الأنف المستقيم كما في يهود شمال أفريقيا ويهود العالم العربي والسفارديم. مثلاً بين يهود اليمن 60% أنوف مستقيمة، بل وهناك نسبة من الأنف المقعر. وبين أشكناز أوربا تسجل القياسات سيادة الأنف المستقيم في حين يقل الأنف المحدب عن النصف دائماً. بل إن الأنف المقعر ليكثر بين يهود الروسيا حيث يكثر الشكل بين السلاف الشماليين عامة. فهناك ترجح نسبة حدوث الأنف المقعر نسبة الأنف المحدب كثيراً، بينما في ليتوانيا تصل نسبة الأنف المقعر إلى 50% ويختفي الأنف المحدب كلية.

ومن الناحية الأخرى، فالأنف الأقني المحدب شائع بوفرة بين غير اليهود: وجد بين ثلث العينة في جنوب شرق بولندا، وهو منتشر كثيراً بين العرب والأفغانيين وكثير من الأوربيين.. إلخ. ونحن أقرب إلى الصحة ـ فيما يرى كون ـ حين نصف الأنف الأقني "بالأنف السامي" منا إذ نصفه "بالأنف اليهودي"، ولو أن هادون يرى عكس هذا تماماً حيث يقول إن تسمية الأنف اليهودي بالسامي خطأ شائع وأنه في الحقيقة من أصل أرميني.

وأياً ما كان، فالذي يميز الأنف اليهودي حقاً إنما هو تشكل أو تشوه خاص يشمل انخفاض أو تدلي طرف الأنف مع ارتفاع جناحي المنخرين حتى ليبدوان معلقين على الوجنتين، مما يؤدي بالتالي إلى ظهور قصبة الأنف مرئية بوضوح. والظاهرة ككل يمكن أن تسمى "بالمنخرة nostrility" وتقرب بروفيل الأنف كثيراً من رقم 6 الإفرنجي مد ذيله. وهذا قد يعطي شعوراً بتحدب الأنف في حين أنه مستقيم في الواقع. ولكن يبقى بعد ذلك كله أن هذا النمط لا يوجد لدى كل اليهود أو حتى أغلبهم.

وفي النتيجة فإن من المستحيل أن نتكلم عن نمط أو شكل يهودي بعينه من الأنف، ولا يعرف اليهود وحدة أنفية أكثر مما يعرفون الوحدة اللونية.

تبقى العيون. الحاجبان، اللذان يبدوان ثقيلين لسوادهما، أميل عادة إلى أن يقتربا بعضهما من بعض. أما العيون فبينما نجد عيوناً شريطية غائرة بين اليهود العرب، تسود بين أشكنازيم أوربا العيون "المائية" الضخمة البارزة والجفون المنتفخة الثقيلة التي ـ كما يعبر ريلي ـ تعطي شعوراً إما بالحزن أو النظرة الحالمة وإما بالخبث المكتوم. على أن المهم أن ليس هناك عيون خاصة

باليهود وبالمثل فإن ما يقال عن امتلاء الشفاه مع بروز الشفة السفلى مدلاة أن لم تكن مقلوبة حقاً، ليس شائعاً أو شرطياً بين اليهود.

يبقى الآن ما يقال عن "سحنة يهودية" بعينها يمكن بها التعرف على اليهودي. قد لا يمكن إنكار وجود مثل هذه السحنة أحياناً، ولكن المحقق علمياً أنها لا توجد عند كل اليهود، فهي إن كانت موجودة بين بعض الأشكناز في أوربا فإنها لا تكاد تعرف في أشكناز أمريكا، كما أنها ليست غير معروفة تماماً بين غير اليهود. ومن ثم فهي كثيراً ما تخدع الرائي في التشخيص فيأخذ غير اليهودي على أنه يهودي واليهودي على أنه غير يهودي. وإذا كانت هذه النظرة أو المسحة تتركز بطريقة ما حول العينين والأنف والفم، فإن من الصعب تحديدها وقياسها.

ولكن الأهم من ذلك كله أن سحنة الوجه هذه ليست صفة جسمانية بقدر ما هي تعبير اجتماعي مكتسب من البيئة الاجتماعية، من صنع الجيتو وحياة التشرد والاضطهاد والصراع ضد الأخطار المستمرة حتى لقد أسماها البعض "تعبير الجيتو". إنها باختصار من فعل الانتخاب الاصطناعي لا الوراثة والبيولوجيا، تثبتت عن طريق التزاوج الداخلي والانتخاب الجنسي والانتخاب الاجتماعي والمهني.

ومعنى هذا إننا إذا صادفنا هذه المسحة اليهودية في الوجه فإنما هي مجرد إرث الاضطهاد الديني أياً كان الأصل الجنسي والسلالة العرقية ودون أن تعني أن صاحبه من نسل بني إسرائيل التوراة بالضرورة.

تلـك إذن مجموعـة مـن الصـفات الجسـمية المنسـوبة إلى اليهـود أو الملاحظ فيهم، لا تدل على الأصل العرقي ولا تحسم مشكلة. وهي إن دلت على شـيء فإنمـا تـدل علـى انعـدام أي وحـدة بـين يهـود العـالم في تلـك الصفات، إن لم تدل حقاً على تأثير بعيد المدى للسكان الذين يعيش بينهم اليهود، أي على الاختلاط الجنسي وامتزاج الدماء. ولكنا نفضل أن نؤجل هـذا الحكـم ريثمـا نستكمل بقيـة صـفات اليهـود الجسـمية. فنصـل الآن إلى الصفة الجنسية التي تعد محور الدراسات الأنثروبولوجية جميعاً، ترتبط مباشرة بالوراثة ولا تكـاد تتـأثر بالبيئـة، ويمكـن أن تكـون مؤشـراً وثيقـاً إلى الأصـول الأولى ومقياساً ومحكاً للنقاوة أو الخلط. إنها لا شك شكل الرأس.

وكمـا رأينـا فـإن يهـود بـني إسـرائيل في فلسـطين التـوراة كـانوا ككـل الساميين المحيطين طوال الرؤوس أساساً. فإذا ما وجدنا رؤوساً غير ذلك بين يهـود اليـوم فليس ثمة إلا تفسير واحـد وحيـد لا سـبيل إلى الشـك فيـه وهـو اختلاط الدم بعناصر غريبة. هـذا مع التذكرة بأن سيادة طول الرأس نفسها بين أي مجموعة من اليهود لا تنفي عنهم بالضرورة إمكانية حدوث اختلاط جنسـي مـا مـع غيرهم مـن طـوال الـرؤوس، لأن تزاوج طـوال الـرؤوس بطـوال الرؤوس لا ينتج إلا طوال رؤوس مثلهم. فكيف إذا رصدنا شكل الرأس عند اليهود في مسح عام؟

من بين المجموعات الرئيسية الثلاث، الأشكناز والسفارديم والشرقيين، يقع الأشكناز جميعاً بين عراض الرؤوس، وأحياناً بين عراض الرؤوس جداً، هكذا هم في كل أوربا والعالم الجديد ابتداء من الفولجا حتى كاليفورينا، حيث

تصل نسبتهم الرأسية إلى مثل ما للألمان الجنوبيين والفرنسيين الألبيين، بل أهم من هذا أنهم في ذلك يشبهون السكان المحيطين محلياً ويقتربون جداً من شكل ونسبة رأسهم. فليس ثمة فارق مثلاً بين اليهود والمسيحيين بالروسيا وبولندا في شكل الرأس، بينما في منطقة القوقاز تتحول رؤوسهم إلى شكل "قمع السكر" الشهير عند الأرمنيين والقفقاز، بل نجده حتى في يهود التركستان.

على أن كون يلاحظ أن الأشكناز في أوربا يقلون في نسبة عرض الرأس ـ وأن يكن قليلاً جداً، درجة أو اثنتين ـ عن السكان المحيطين، كما أن وجوههم أقل استعراضاً أو أكثر استطالة نوعاً ما. ولهذا ينتهي كون إلى أن اليهود قد حققوا أيضاً في مجال شكل الرأس توازناً ثابتاً كما فعلوا في لون الشعر. هذا عن الأشكناز.

ولقد كانت النظرية الشائعة بعد هذا أن السفارديم على طرف النقيض مباشرة من الأشكنازيم، أي طوال الرؤوس جميعاً. ولكن هذه المقابلة تبسيطية أكثر مما ينبغي، فحقاً يغلب طول الرأس بين السفارديم، ولكن منهم جماعات استعرضت رؤوسهم كما في شمال إيطاليا حول تورينو وغيرها، وربما لحقت بهم جماعات أخرى من سفارديم البلقان، ومع ذلك يمكن بصورة عامة جداً أن نقبل تلك المقابلة العريضة من قبيل التبسيط الميسور.

هذا ويلاحظ أن السفارديم يعيشون جملة بين شعوب طويلة الرأس كالبربر والعرب بحيث لا يمكن للتزاوج أن يغير من شكل رؤوسهم وإنما على العكس يؤكده. غير أن مما يجدر ذكره أن أبعاد مقاييس الرأس المطلقة في

ذاتها أقل بعامة بين هؤلاء اليهود منها بين شعوب الجوييم المحيطة، وأقرب بذلك ـ هكذا يقول كون ـ إلى نمط يهود فلسطين التوراة أو السامرة.

يبقى اليهود الشرقيون. هؤلاء يأتون في المنزلة بين المنزلتين أو بالأحرى يقعون في حدود التنصيف. فجزء منهم طوال الرؤوس كالسفارديم، وهذا يشمل يهود مصر والشام واليمن والعراق وجنوب إيران. وهنا أيضاً يلاحظ أن السكان المحيطين طوال الرؤوس، إلا أن أبعادهم المطلقة أي حجم الرأس أكبر نوعاً بدرجة وبالأخرى من اليهود.

أما الجزء الآخر فهو كالأشكناز استعرضت رؤوسهم كما في شمال العراق ومنطقة جبال القوقاز وشمال إيران، ثم يهود التركستان الروسية بكل شظاياها، وأخيراً اليهود القرائين في القرم وليتوانيا. ففي كل هذه الحالات يعيش اليهود في محيط واسع من عرض الرأس الشديد، وفيه استعرضت رؤوسهم بشدة حتى لا يختلفون عنه البتة. إلا أن هناك فارقاً في شكل الوجه ـ لا الرأس ـ فهو يميل نوعاً إلى الاستطالة بينما هو عريض بين السكان المحيطين، وهو في هذا يذكر إلى حد ما بوجوه يهود فلسطين التوراة، والسامرة. ومع ذلك فهو أقل ميلاً إلى الاستطالة بين يهود دائرة القوقاز والقرم منه بين يهود دائرة التركستان.

من هذا المسح السريع نصل إذن إلى أن اليهود يقعون من حيث شكل الرأس في مجموعتين: عراض رؤوس وطوال رؤوس. والمجموعة الأخيرة تشمل أغلب السفارديم ونصف الشرقيين، أما الأولى فتضم النصف الآخر ـ الشرقي أو الشمالي ـ من اليهود الشرقيين بالإضافة إلى كل الأشكناز. ومن

الناحية العددية، ولها هنا مغزى كبير، تزيد مجموعة عراض الرؤوس عن 80 ـ 90% على الأقل من كل يهود العالم، والأقلية الضئيلة الباقية هي طوال الرؤوس. ومن الناحية الجغرافية، يتوزع عراض الرؤوس من اليهود في مناطق سكانها عراض الرؤوس، ابتداء من وسط أوربا حتى وسط آسيا، بينما يقيم طوالهم بين أجناس طويلة الرأس ابتداء من المغرب حتى العراق.

ومن هذا وذاك يتضح على الفور أن الأغلبية الساحقة من اليهود إنما تحولت إلى عراض الرأس بعملية استعراض brachycephalisation أو تأثر بالألبية أو الدينارية كما تسمى علمياً Alpinisation Dinaricsation وذلك عن طريق واحد ووحيد وهو التزاوج والاختلاط الجنسي مع غير اليهود، بينما أن الأقلية التي احتفظت بطول رأسها الأصلي لا يتحتم بالضرورة أن تكون قد أفلتت من مثل ذلك الاختلاط، ولكنه أمر متروك في هذه الحالة إلى الأدلة التاريخية. وهذا ما ينقلنا إلى قضية النقاوة الجنسية والاختلاط، شواهدها وأدلتها، أبعادها ومغزاها.

نقاوة أم اختلاط
يهود تـأوربـوا أم أوروبيون تهوّدوا؟

حسناً، بأي مغزى يمكن أن نخرج من هذه الدراسة، وأي معنى تحمل بالنسبة لدعاوى الصهيونية السياسية وغير السياسية؟ الشيء المحقق أن ما قد يختص ويشتهر به اليهود من "طابع" أو "سحنة" مميزة هو أمر لا ينكره العلم تماماً، ولكنه ظاهرة جزئية ليست بجامعة أو بمانعة من ناحيته، ومن ناحية أخرى فإنها برمتها ظاهرة حضارية من صنع اليهود أنفسهم ونتيجة لإحساسهم الملتهب بذاتهم طائفياً وشعورهم المتضخم بكيانهم الديني، وليست صفة جنسية دالة ولا تعني البتة وحدة الأصل أو نقاوة السلالة. بل على العكس من هذا تماماً، يمتاز اليهود. بمناقضة فذة وحقيقية جداً: شبه تجانس أو شبه وحدة جزئية في السحنة والنظرة العامة، وتنافر مطلق في الأصل الجنسي.

ويحاول كون أن يجعل من اليهود طوال الرؤوس من السفارديم وبعض الشرقيين وحدة أثنولوجية ethnic unit قائمة بذاتها، قد تتباين فيما بينها من منطقة إلى منطقة، ولكنها بعامة تتباين أكثر مع السكان المحيطين. وبالمثل

يصور اليهود الأشكناز ومعهم بقية الشرقيين على أنهم وحدة أثنولوجية أخرى. ومع ذلك فهو يعترف بأن كل نوع أو سلالة جنسية معروفة في أوربا يمكن بسهولة أن تلتقط من بين يهود القارة، وأن أغلب اليهود يمثلون خليطاً بطريقة أو بأخرى بين عديد من تلك الأنواع والسلالات. وكذلك يضيف أن من السهل جداً أن نلتقط من بين يهود الروسيا أفراداً يمتازون بالصدغ الواسع والأنف العريض القصير snub وعظام الوجنة البارزة بدرجة لا تفرقهم عن جماعات الفن المغولية التي تسكن منطقة الفولجا، بينما يوجد بين اليهود الألمان أفراد هم بكل معنى الكلمة نورديون مثاليون.

ويمكن من ناحيتنا أن نضيف على مستوى العالم متناقضات كالموزايكو تكاد تغطي كل ما نعرف بين البشر من اختلافات في الصفات الجنسية. فثمة اليهود السود في الحبشة وجنوب الصحراء الكبرى، واليهود الملونون في الهند، بل والصفر أحياناً في كركستان، وأخيراً اليهود الشقر في أوربا. أو كما لاحظ دالبي Dalby في أواخر القرن الماضي هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود ـ البيض والسمر والسود. هناك اليهودي الربعة غليظ الملامح عريض الرأس من الأشكناز، واليهودي النحيف دقيق الملامح طويل الرأس من السفارديم.

ثمة الأنف اليهودي المحدب والأنف المقعر بين كثير من يهود الروسيا ثمة العيون اللوزية في السفارديم والمكتنزة الضخمة في الأشكنازيم والعيون المغولية المسحوبة في بعض يهود وسط آسيا.

وبعامة فإن السفارديم أشبه بعنصر البحر المتوسط والأشكناز أشبه بالصقالبة الشماليين. وفضلاً عن هذا فإن الدراسات السيرولوجية أثبتت تماماً أن اليهود يبدون فيما بينهم معدل تفاوت كبيراً جداً في فئات الدم مما ينفي تجانس الأصل، وأكثر من ذلك لا تبدي تلك الفئات أي علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين، مما يؤكد عمق انفصالهم جنسياً عن الأصل القديم.

واضح تماماً إذن أن الحديث عن وحدة جنسية بين اليهود ككل لا محل له من حقيقة أو علم على الإطلاق، وأن اليهود لا يعرفون الوحدة الجنسية أكثر مما يعرفون الوحدة الجغرافية، وواضح بالتالي أن النقاوة الجنسية المزعومة لهم إنما هي محض "خرافة" كما يعبر ريلي. والواقع أن هذه قضية لم تعد، بل لم تكن قط، موضع جدل بين العلماء.

فكما قال رينان من قبل، إن المغزى الأثنولوجي لكلمة يهود ـ على الأقل في شرق ووسط أوربا ـ قد انتهى منذ أمد طويل. وفي نفس المعنى أكد دالبي أنه ليس ثمة بعد أي شيء كقضية جنس يهودي على الإطلاق. وكما يقول ريلي من بعد: ليس اليهود جنساً بل مجرد "ناس" بكل بساطة.

وعلى هذا الحكم الحاسم الأخير يعلق مؤلفو كتاب "نحن الأوربيين We Europeans وهم جوليان هكسلي وهادون وكارسوندرز: "ونحن نعتقد أنه على صواب: إن اليهود لا يمكن أن يصنفوا لا كأمة ولا حتى كوحدة أثنولوجية، بل هم بالأحرى مجموعة اجتماعية ـ دينية تحمل قدراً كبيراً من

عنصر البحر المتوسط والأرمني وغيرهما كثير، وتتفاوت تفاوتاً عظيماً في الصفات الجسمية". ثم يضيف هؤلاء الكتاب قائلين "إن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمنيين في الأعم الأغلب، فإنهم بالتأكيد يبدون من الصفات الأرمينية أكثر مما يبدون من الصفات "السامية" وإن النمط الجنسي الذي يميز طائفة السامريين، وإن كنا نلقاه بين اليهود المحدثين إلا أنه بالتأكيد نادر بينهم".

ومن بعد ريلي ومن بعد معلقيه أيضاً يقرر هوتون Hooton بجزم قاطع: "حقيقة هي لا شك أن اليهود مختلطون جنسياً ومن أصول طبيعة متنوعة". وهو إذا كان يجد فيهم قدراً ما من وحدة طبيعية ونفسية وحضارية، فما هي بوحدة جنسية تماماً ولا وطنية ولا لغوية ولكن إلى حد ما كل أولئك. ويؤكد أشلي مونتجيو Ashley Montagu نفس الانتهاء فيقرر على النقيض مباشرة من كون أن اليهود ليسوا وحدة أثنولوجية بل، بإصطلاحه مجرد "معزوفة حضارية Cultural isolate.

والسؤال الآن: كيف تم اختلاط أو تخليط اليهود، وما هي الأدلة والشواهد التاريخية عليه؟ لنذكر أو لنتذكر أولاً أن اليهود من أصحاب نظرية النقاوة الخرافية يحاولون بكل وسيلة إثبات العكس على أساس أن حياة العزل في الجيتو والعداء والاضطهاد الديني عوامل مضادة للاختلاط والتزاوج. ولكن الواقع التاريخي اليقيني يكذب هذا التصور أو التصوير تماماً. كذلك فإنهم يتخذون من أسماء الأشخاص اليهودية دليلاً على عدم التزاوج، فعلى سبيل المثال أسماء كوهن وكوهين... إلخ تشير إلى نسل

الكوهـانيم أو الكوهـانين Cohanim أبنـاء هـارون وكهنـة المعبـد القـدامى (والاسم كوهين تحريف للكلمة العربية كاهن) وهؤلاء محرم عليهم كلية أي دم غريب. ولكن الحقيقة أن هذا الاسم خرج عن حدوده الأصلية وأصبح أكثر أسماء اليهود شيوعاً. ومن الناحية الأخرى، فإن أسماء يهودية أصيلة وبحتة هي اليوم من أكثر الأسماء شيوعاً بين الملايين من المسيحيين في أوربا. فكيف حدث هذا بغير التزاوج والتحول؟

الحق أن موقف اليهود أصحاب نظرية النقاوة ليس غير علمي فحسب، ولكنه أيضاً انتهازي ومغرض بوضوح، ولذا لا يمكن الاعتداد به فضلاً عن الاعتماد عليه. ويكفي للتدليل على هذا الذي نقول أن نذكر موقفهم أيام اضطهاد النازية في ألمانيا. فلما كان كل شيء يقاس حينذاك بالجنس النوردي والأصل الآري، فقد كان اليهود يدعون أنهم من ذلك الجنس والأصل ليفلتوا من عقاب ولعنة السامية. أما الآن بعد اغتصاب فلسطين، فكل دعواهم أنهم ساميون لحماً ودماً!

ولكي نعرف أين الحقيقة في هذا الانقلاب الانتهازي الفاضح، يكفي أن نورد تعليق هوتون على اضطهاد ألمانيا النازية لليهود حيث يسخر قائلاً إن اليهود ربما كانوا يمتلكون من الدم النوردي مثلما يمتلك الألمان أنفسهم! ولا شك أن مما له مغزاه كذلك أن القليل من الكتاب الذين يأخذون بنظرية نقاوة اليهود الجنسية هم من دعاة النظريات العنصرية التي نبذها العلم تماماً مثل هوستون ستيوارت تشمبرلن الذي يزعم أن تلك النقاوة هي سر قوتهم مثلما تجعلهم "غرباء بين كل الأمم"!.

التزاوج والتحول إذن حقائق لا شك فيها، وعليها يجمع جمهره الأنثروبولوجيين ابتداء من كين إلى ربلي إلى كون... إلخ. فهذا كين يتكلم عن "الزيادات الضخمة من (الجنتيل) المتحولين"، ويقول: "إن الافتراض بأن اليهود ضموا قليلاً أو لا شيء من المتحولين هو افتراض لم يعد بعد مقبولاً". ويضغط مؤلفو "نحن الأوربيين" خاصة على نقطة هامة وهي أن نمو أعداد اليهود في المهجر بعد الشتات بمعدلات غير معقولة إنما يرجع في جزء منه إلى التحولات الضخمة إلى اليهودية أما ربلي فيقرر أن ليس ثمة أيسر من إثبات الاختلاط والتزاوج والتحول بين اليهود والجنتيل في أوربا وخارج أوربا.

ولقد كان هناك طريقان أساسيان لانتشار اليهودية وتمددها: التحول الديني سواء من الوثنية أو المسيحية، والتزاوج والامتزاج الدموي. وللتحول شكلان رئيسيان: التحولات بالجملة، وهي معروفة محددة تاريخياً أهمها حالة الخزر والفلاشة واليهود السود من التآميل واليهود القرائين في طوروس.

الشكل الثاني هو التحولات الفردية المستمرة في كل مكان وزمان. أما التزاوج فشكلاه الزواج العلني والسري أو العلاقات الجنسية غير الشرعية. وكتاب اليهود يصرون على ضآلة دور التحولات بعامة والتحولات الجماعية بخاصة في انتشار اليهودية. وعلى أية حال فلا شك أن اليد العليا كانت دائماً للتزاوج، هادئاً ودفيناً ومزمناً. وقد ارتفع التزاوج المختلط بين اليهود والجنتيل إلى نسب عالية في فترات الهدوء وتوقف الاضطهاد، فإذا كان الزوج يهودياً نشأ الأبناء يهوداً، ولكن يحدث أحياناً أن تنتزع ديانة الزوجة اليهودية الأبناء من ديانة الأب.

أدلة الاختلاط التاريخية

في ضوء هذه الأسس العامة، نود أن نستقرئ وقائع التاريخ نفسه، ماذا تقول وكيف تحكم في قضية الاختلاط والتحول. فإذا بدأنا عرضنا التاريخي من البداية، فسنجد أن يهود فلسطين التوراة تخلطوا في عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين (كما تدل قصة شمشون اليهودي ودليلة الفلسطينية) ومع جيرانهم من العموريين والحيثيين (كما يشير سفر حزقيال: "أمك كانت حيثية، وعموريا كان أبوك"). وهذا الاختلاط الجنسي كان أقوى على حواف وهوامش كتلة هضبة يهودية المفتوحة نوعاً منه في قلبها الوعر المعزول. وكثيراً ما فرض على اليهود الذين اتخذوا زوجات "وثنيات" من الأجانب المحيطين أن يتركوا الوطن إلى تلك السهول المجاورة. كذلك فمن الثابت إبان الأسر البابلي الذي استمر 140 عاماً أن كثيراً من اليهود تخلوا عن ديانتهم القديمة.

وبوجه عام فنحن نجد منذ بداية التاريخ أن الرفض للزواج المختلط بين اليهود والجنتيل لم يكن قط جنسياً بل دينياً، بحيث ينتهي إذا تحول الجنتيل إلى اليهودية. والواقع أنه في أيام اليهودية الأولى لم يكن الزواج من غير المؤمنين ممنوعاً أبداً، كما حدث فيما بعد. هكذا يذكر المؤرخ جوزيفوس أن

يهود أنطاكية نجحوا في تحويل الكثيرين إلى عقيدتهم وأدخلوهم مجتمعهم. وقد حدث عدد كبير للغاية من التحول إلى اليهودية بلا شك في القرن الثاني الميلادي. ومن الأمثلة الهامة النساء اليهوديات اللائي تم بيعهن كإماء وأخذن إلى مقاطعة الراين كزوجات لجنود الرومان، وبعض هؤلاء الجنود هجروهن عند نقلهم إلى مواقع أخرى، فشب أبناؤهم كيهود.

والثابت أن التحول والاختلاط كانا من المظاهر المتفشية قبل العصر المسيحي مباشرة وفي قرونه الأولى. فحين تشتت اليهود في العالم المتوسطي وجدوا أنفسهم إزاء اختيارين: إما أن يرتدوا وثنيين كجيرانهم الجدد، وإما أن يحتفظوا بديانتهم. وهناك ـ كما يقول بيرجل ـ "أصبح الكثيرون، ربما الأغلبية، وثنيين، وذلك لأن من بين القبائل الاثنتي عشرة عشراً "مفقودة" كما تحدثنا الروايات". وفي حالة التحول كان اليهود يفقدون كيانهم الجنسي جنباً إلى جنب مع كيانهم الديني، ويصبحون جزءاً لا يتميز عن الأمة التي أقاموا بينها. أما إذا ظلوا على يهوديتهم، فإنها إذن العزلة الاجتماعية، ومن ثم فلا تزاوج إلا إذا تحول الوثنيون إلى اليهودية، وهذا بالدقة ما حدث مراراً وتكراراً لأن اليهود قاموا بكثير من التبشير بنجاح عظيم عبر قرون طويلة، وهذا ما يفسر جزئياً تنوعهم وتباينهم الجنسي، إلا أن الموقف تغير بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية، حيث أصبح التحول إلى اليهودية صعباً، ولكن التزاوج والعلاقات غير الشرعية لم تتوقف.

أما في العصور الوسطى حيث أصدرت المجالس الكنسية قرارات صارمة بمنع زواج المسيحيين باليهود كما فعل مجلسا توليدو عام 538، 589، ومجلس روما عام 743، فإن أغلب الكتاب يفسرها على أنها دليل على خطورة المدى الذي كان الزواج المختلط قد وصل إليه بالفعل. بل إن اضطهاد القوط الغربيين في إسبانيا لليهود في القرن الخامس والسادس الميلاديين إنما يرجع ـ كما يؤكد كين ـ إلى نشاطهم التبشيري الخطير وإلى تفشي الزواج المختلط بينهم وبين المسيحيين.

وثمة أدلة أخرى على الاختلاط والتحويل على نطاقات إقليمية كبيرة. فالسفارديم قبل خروجهم من إسبانيا كانوا قد استوعبوا دماء أيبيرية وغربية وبربرية كثيرة في عروقهم. وفي شمال أفريقيا من المؤكد ـ كما رأينا ـ أن اليهودية كانت قوية الانتشار بين كثير من قبائل البربر قبل قدوم الإسلام مباشرة. وفي المغرب يبدو اليهود المتكلمون بالبربرية اليوم مختلفين بشدة عن يهود السفارديم المتكلمين بالإسبانية في المدن المغربية بينما أن اليهود المتكلمين بالعربية في نفس المدن ينحدرون من أكثر من أصل يهودي واحد أهمه بلا شك العنصر البربري. أما في أوربا فالأدلة التاريخية تشير بكل قوة إلى أن أجداد الأشكناز اختلطوا مع أبناء غرب أوربا إلى ما قبل الحروب الصليبية الأولى اختلاطاً أقوى من اختلاط أجدادهم الأحداث من أبناء البلاد السلافية في شرق القارة. فغزارة شعر اللحية والجسم وتموج شعر الرأس، إلى جانب عرض الرأس، تدل على تأثير جنسي ألبي فرنسي أو ألماني أكثر منها مؤثرات سلافية.

أما عن التحول، فقد صدر كثير من التشريع الصارم ضد استخدام اليهود لخدم مسيحيين، خشية تحولهم إلى اليهودية ثم الزواج بهم، إلا أن الأرجح أن هذا المنع لم يجد نفعاً، حيث نجد على سبيل المثال كبير أساقفة المجر يقرر في عام 1229 أن كثيراً من اليهود كانوا يعيشون حياة غير شرعية مع زوجات مسيحيات، وأن التحولات "بالآلاف" كانت مستمرة وفضلاً عن هذا، فلم يكن القانون يتضمن حماية العبيد والأقنان من إمكانية التهود والزواج من اليهود. وفي إسبانيا والبرتغال بعد الاسترداد أجبر مئات من الآلاف من اليهود على التنصر بالقوة والتحول إلى المسيحية حيث ذابوا بعدها في السكان.

أما في عصرنا الحديث فتتواتر الأدلة والأحداث الثابتة التي تؤكد التزاوج والتحول على حد سواء. فمع الهجرة إلى العالم الجديد تحول كثير من الهنود الحمر والزنوج في أمريكا الوسطى والجنوبية إلى اليهودية ـ ولا علاقة لهم جنسياً ودموياً باليهود أصلاً، ومع اختفاء التعصب الديني في أوربا الصناعية، وأكثر منه مع العلمانية المطردة، انهارت الحواجز أمام التحول والزواج وتوسعت العلاقات غير الشرعية. وإذا كانت التحولات الجماعية بالجملة قد قلت، فقد زادت بصورة لافتة للنظر التحولات الفردية في العصور الحديثة، ويمكن أن نتخذ من بعض الأسماء الشهيرة مؤشراً في ذلك الاتجاه: مثلاً الشاعر هايني والموسيقي مندلسون وغيرهما من اليهود الذين اعتنقوا المسيحية. وفي روسيا القيصرية كان حصول اليهود على المساواة المدنية رهناً بتحولهم إلى المسيحية.

ومن الأدلة القاطعة بل والمثيرة على مدى اختلاط اليهود في العصور الحديثة والوسيطة في أوربا ما كشفت عنه تجربة النازية في ألمانيا. فقد كان على المرء الذي يبغي إثبات الدم الآري فيه أن يقدم نسباً يخلو لعدة أجيال من العناصر غير الآرية، يعني هنا اليهودية بالتحديد. ولكن المفاجأة أن التجربة كشفت أن عدداً ضخماً من الحالات من المواطنين الألمانيين "إلى أقصى حد" ثبت أن أجدادهم وأجداد أجدادهم تجري في عروقهم الدماء اليهودية! ـ تماماً كما تردد عن ريشار فاجنر من قبل..

وفي العام الماضي فقط أخرج كاتب فرنسي كتاباً كان له دوي كبير حيث أثبت أو حاول أن يثبت بتتبع شجيرات الأنساب الدقيقة لمعظم الشخصيات المسيحية البارزة من عائلات مالكة ورؤساء وزعماء... إلخ، في العالم الغربي كيف تجري في عروقهم دماء يهودية بدرجة أو بأخرى، وبالعكس أن كثيراً من اليهود المعروفين داخلهم دماء مسيحية. أما في الولايات المتحدة، حيث أعظم مستعمرة لليهود اليوم، فمن المعلومات العامة للكافة والخاصة انتشار الزيجات المختلطة ووجود أنصاف وأرباع اليهود... إلخ، لا سيما منذ القرن الماضي حين أصبح الزواج المدني مباحاً وقانونياً.

والواقع أن هذه النقطة الأخيرة تنقلنا إلى أخرى لا تقل أهمية ومغزى. تلك أعني ظاهرة ذوبان أو انصهار اليهود واندماجهم أو امتصاصهم في شعوب العالم المعاصر الحديثة assimilation، وموقف الصهيونية السياسية منها، فالصهيونية إذ تحاول عبثاً أن تجعل من اليهودية العالمية شعباً وقومية

وأمة بل وجنساً مستقلاً وليس مجرد طائفة دينية تقطع عبر، وتجمع بين عشرات الشعوب والقوميات والأمم والأجناس، لا تزيف حقائق التاريخ الواقع فقط، ولكنها تقاوم وتحارب حتمية حركة التاريخ التقدمية وتسعى إلى تجميد تطور المجتمع الإنساني. فالصهيونية تعلم علم اليقين أن الاضطهاد الذي تعرض له اليهود في أوربا الوسيطة والحديثة لا يرجع إلى التعصب الديني وحده بقدر ما يرجع إلى طريقة حياة اليهود وانعزالهم وطبيعة حرفهم الابتزازية ومركب إحساسهم المتضخم بأنفسهم وادعاءاتهم بالتفوق الموهوم، وتعلم الصهيونية كذلك أن عصور الإقطاع والحكم الأوتوقراطي المطلق ومناخ الطبقية التقليدية كانت تشكل بيئة ملائمة وقوى ضاغطة ودافعة لهذا الاضطهاد بمثل ما أن هذا الاضطهاد ذاته بيئة ملائمة وقوة دافعة لليهود أنفسهم إلى مزيد من الإصرار والتمسك بانعزاليتهم وانفراديتهم وتضادهم.

وهي ـ الصهيونية ـ ترى الآن أن روح الليبرالية المعاصرة السارية وتطور الوعي السياسي في المجتمع الصناعي الحديث ومثل التسامح التديني إن لم يكن اللامبالاة الدينية، كلها طفرات جديدة وخطيرة "تهدد" بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية ضد السامية، وبالتالي تهدد بسقوط الستار الحديدي الذي ضربه اليهود حول أنفسهم. وانتفاء التضاد السادي ـ المازوكي الذي افتعلوه مع بيئاتهم، ومن ثم تهدد بذوبانهم في شعوب الأمم ثقافة ولغة بل ودِيناً وجنساً.

ومن هنا تصل الصهيونية في انحرافها إلى حد الشذوذ الفكري والعنصري، فنجدها تحاول محمومة استبقاء مناخ الاضطهاد وشبحه وتجسيد أسطورته إلى الأبد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذي يظل مع ذلك يفرض نفسه كواقع قاهر يتمثل أخطر ما يتمثل في التزاوج المختلط مع غير اليهود، وفي تحول بعض اليهود إلى عقائد أخرى.

ولئن كان هذا اليوم واضح وأخطر ما يكون في بوتقة الولايات المتحدة، فإن أوربا الغربية تعرفه أيضاً بدرجة أو بأخرى. والخط التاريخي الذي أكد نفسه منذ البداية وهو تخلط وتهجن اليهود وذوبانهم جنسياً، يعيد اليوم تأكيد نفسه برغم انحرافات وشعارات الصهيونية، بل ويفرض نفسه أكثر منه في أي وقت مضى.

ولنقف هنا قليلاً عند يهود الولايات المتحدة. الثابت أن اليهود حيثما حصلوا على المساواة القانونية الكاملة في الحيثية المدنية، كما في الولايات، فكثيراً ما يتزوجون من الجنتيل. فإذا أصر الطرف اليهودي على أن يغير الطرف الآخر عقيدته نشأ الأبناء يهوداً وظلت الأسرة يهودية. أما إذا تحول الطرف اليهودي إلى المسيحية فقد يتزوج الأبناء فيما بعد يهوداً ويعودون بذلك إلى اليهودية، وإلا فإن الأسرة اليهودية تنقرض في النهاية. غير أنه ليس ثمة حالة معروفة تحول فيها اليهود إلى المسيحية ثم ظل الجيل الثالث يهودياً. وهكذا فإن التحول الديني يؤدي في النهاية إلى التمثل والانصهار مع المجتمع الأمريكي.

والإحصائيات تدل على زيادة مطردة في الزيجات المختلطة بين اليهود. فقد وجد أحد الباحثين الاجتماعيين أن نسبة الزواج الداخلي بين اليهود في مدينة نيوهافن عام 1946 كانت 97% ، وأن 3% يتزوجون خارج الطائفة. ووجد باحث آخر أن نسبة الزواج المختلط في نفس المدينة ارتفعت من 1.1 % إلى 6.3% بين 1900، 1940، أي أنها وصلت إلى ضعف التقدير الأول. والواقع أن اليهود أكثر تعرضاً للعلمانية المطردة إذا قورنوا بغيرهم من الأقليات الأمريكية. وإلى جانب ذلك فإنهم كمجتمع مدن أساساً يمتازون بمعدل مواليد منخفض، بل أشد انخفاضاً منه بين أي مجموعة مدنية أخرى، ولا يمكن أن يعوضوا أو يحافظوا على أعدادهم بالتزايد الطبيعي.

وفي النتيجة هكذا ينتهي كاتب مثل بيرجل ـ فإن يهود أمريكا لا بد أن يتناقصوا عددياً سواء على الإطلاق أو بالنسبة إلى مجموع السكان. ومع تسارع وإطراد العلمانية والانصهار فلا مفر لهذا التناقص من أن يشتد ويشتد. ومن هنا يمكن أن نعتبر اليهود كأقلية في الولايات المتحدة "ظاهرة عابرة" في نهاية المطاف، ولا يؤخر اختفاءهم النهائي إلا ضد السامية أكثر من أي عامل آخر.

لن يجدي إذن تصايح وصراخ الصهيونية العالمية شيئاً إزاء حضارة العصر المتفجرة المعدية الكاسحة التي لا مكان فيها لعزلة وعقلية الجيتو، وأين؟ ـ في قلب دوامة تلك الحضارة وفي عين إعصارها في الغرب الأوربي والأمريكي! وإذا كانت العصور الوسطى هي عصر تحول غير اليهود إلى اليهودية!

من هنا نفهم كيف أن الصهيونية "تتاجر" بالفعل في الاضطهاد، تذكى ذكراه وتؤجج ناره كلما خبت جذوتها أو رمادها، وتراه ضمان بقائها، في الوقت الذي تمثل فيه إسرائيلها دولة المنتفعين بهذا الاضطهاد. بل إن الفكرة الجذرية في خلق إسرائيل ليست في النهاية إلا فكرة الجيتو بحذافيرها وإنما على مقياس مجمع كبير. فهي رعاء موحد لاستبقاء انعزالية اليهود على الجوبيم وتضادهم معهم: إنها الجيتو دولة أو هي دولة الجيتو. ولكن كما ذاب ويذوب الجيتو في الخارج لن يمضي وقت طويل حتى يذوب ويزول جيتو إسرائيل إلى الأبد.

وبعد، فلقد انتهت رحلتنا عبر التاريخ بحثاً عن الأدلة والشواهد اليقينية على اختلاط وذوبان اليهود، فهل يمكن من محصلة هذا العرض المفصل أن نضع أيدينا على جوهر وميكانيزم العملية كلها؟ نعم، وجغرافي يهودي بالذات ـ هنتنجتون ـ هو الذي يضعها بين أيدينا! فطوال التاريخ ـ كما يقول ـ نلمح ظاهرتين أساسيتين: أعداد ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية، وفي نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية.

وفي النتيجة فإن جسم الطائفة ليس ثابتاً جنسياً بل هو متحرك وفي تغير داخلي مستمر وفي ابتعاد دائم عن الأصول الأولى بحيث يتضاءل أبداً وباستمرار حجم النواة النووية الحقيقية من بني إسرائيل التوراة فيهم حتى لتكاد تختفي وتنقرض فضلاً عن أن تظل قابلة للتعرف عليها وتحديدها. إنها

عملية إحلال وإبدال مزمنة دائماً، معدية أحياناً، ظاهرة ومستترة، وئيدة ربما ولكنها أكيدة قطعاً، إنها تكاد تقول عملية "تغيير دم" كلية وشاملة.

وفي النتيجة يكاد يصبح جسم اليهود في آخر المطاف شيئاً مختلفاً أنثروبولوجياً عن يهود التوراة إن لم يكن لا علاقة له بهم تقريباً أو في الأعم الأغلب. ويتأكد هذا كله حين نتذكر ما سبق أن ألمعنا إليه بشأن تعداد اليهود حيث بدؤوا الشتات بأرقام هزيلة جداً ولكنهم سرعان ما بلغوا الملايين رغم كل المذابح والاضطهادات.

نستطيع إذن أن نخلص من هذا كله بثقة واطمئنان إلى أن اليهود يتألفون من دماء مختلطة كأشد ما يكون الاختلاط. وإذا كان ثمة خلاف بعد هذا، فإنما يدور حول المدى والدرجة وإلى أي حد. هنا نجد رأيين أساسيين: فيرى ربلي أن اليهود يأخذون أينما كانوا صفات السكان الذين هم مقيمون بينهم، وأبرز ما يتمثل هذا في شكل الرأس، الأساس الأنثروبولوجي الأول والجوهر، ثم إلى حد ما في لون البشرة، وبناء على هذا يقبل رأي لومبروزو Lombroso القديم من أن اليهود جنسياً آريون أكثر منهم ساميين أو بتعبير آخر أنهم أوربيون تهودوا أكثر منهم يهوداً تأوربوا.

وإلى نفس المدرسة والرأي ينتمي مؤلفو "نحن الأوربيين"، "إن اليهود ـ هكذا يؤكدون ـ من أصل مختلط، وقد ظلوا باستمرار يزدادون اختلاطاً". ثم يضيفون "كان هناك دائماً قدر معين من التزاوج بين اليهود وغير اليهود من سكان البلاد التي أقاموا فيها... بحيث أن عدداً من الجينات المستمدة من اليهود المهاجرين يتوزع بين مجموع السكان، وأن المجتمعات اليهودية

أصبحت تشبه السكان المحليين في كثير من الخصائص، وبهذه الطريقة أصبح يهود أفريقيا وشرق أوربا وإسبانيا والبرتغال... إلخ مختلفين بوضوح عن بعضهم البعض في النمط الجسمي".

ويؤكد نفس الكتاب الفكرة في موضع آخر قائلين "والنتيجة أن يهود المناطق المختلفة ليسوا متماثلين جينياً وأن السكان اليهود في كل بلد يتداخلون ويتشابكون مع غير اليهود في كل صفة يمكن تصورها. وكلمة يهودي صحيحة كوصف اجتماعي ـ ديني أو شبه قومي أكثر منها كتعبير أنثولوجي في أي معنى جيني (ولو أن هذا لا يقصد به أن اليهود أمة بالمعنى المفهوم للكلمة). وكثير من الصفات "اليهودية" هي بلا شك نتاج التقاليد والتربية اليهودية خاصة رد الفعل ضد الضغط الخارجي والاضطهاد أكثر منه نتاج الوراثة".

ومرة ثالثة يضغط هؤلاء المؤلفون على نفس الانتهاء فيقولون إن "ما احتفظوا به وورثوه ليس "صفات جنسية" بل تقاليد دينية واجتماعية. فاليهود لا يؤلفون جنساً محدداً وإنما مجتمعاً يشكل جماعة شبه قومية ذات أساس ديني قوي وتقاليد تاريخية خاصة. وإنه لخطأ غير مشروع أن نتكلم عن "جنس يهودي" تماماً كما لو تكلمنا عن جنس آري".

هذا عن الرأي الأول في اليهود. أما الرأي الثاني فيمثله كون الذي يقبل تشكلهم بصفات السكان المحيطين لكنه يرى فيهم إلى جانب ذلك آثار الأصل الفلسطيني العبري القديم بخصائصه المتوسطة، وبخاصة في شكل

الوجه الطويل وأبعاد أو حجم الرأس الصغير. ومن هذا المنطلق يدير كل مناقشته على أساس أن اليهود اليوم في بيئاتهم المختلفة ليسوا مجرد جماعات من أبناء تلك البيئات تحولوا إلى اليهودية، وإنما هم في الأغلب الأعم يهود حقيقيون من أبناء الشتات الفلسطيني امتزجوا دموياً بأبناء تلك البيئات الأصليين: مثلاً، يهود العراق يهود حقيقيون وليسوا عراقيين تهودوا، يهود بخارى والتركستان ليسوا مجرد تاجيك أو سارت تهودوا بل أصلاً يهود ولكن استعرضت رؤوسهم بالاختلاط بهؤلاء، ويهود وسط أوربا ليسوا ببساطة أوربيين تهودوا وإنما يهود تأوربوا... ويقدر كون ـ كمجرد تخمين بحت كما يعترف ـ أن نسبة عنصر البحر المتوسط الفلسطيني الأصلي في يهود أوربا الأشكناز قد تزيد على نصف جميع العناصر الداخلية في تكوينهم، وهي بذلك أهمها.

ومن هذا كله ينتهي إلى أن اليهود "ليسوا مجرد كومة عشوائية – grob bag توحد بينها رابطة مشتركة من الدين بلا تماسك بيولوجي أكثر مما لوحدات عفوية كمستمعي الراديو أو عاملات الحياكة"! وقد يمكن أن نعد موقف هنتنجتون قريباً من موقف كون، حيث يسمي اليهود ـ بلغته الخاصة ـ "مجموعة قربي Kirh" شأنهم في ذلك شأن البيوريتان أو الماوري أو الإغريق (كذا).

غير أننا نرى في هذه التشبيهات المتنافرة ما يعقد الصورة أكثر مما يبسطها، ويكفي أن نتخذ من كون علماً على الرأي ورمزاً له.

أين تقع الحقيقة بين هذين الرأيين ـ والفارق بينهما فارق كبير في الدرجة يوشك أن يكون فارقاً في النوع؟ هذا هو السؤال. المحقق أننا لا يمكن علمياً أن نستبعد من بعض من يهود العالم نسبة ما من الأصل الفلسطيني القديم. ولكن من المحقق أيضاً أن تقدير كون وتصويره يبالغ بعامة في تلك النسبة. فالملاحظ أولاً أن الفروق الجسمية التي يسجلها بين اليهود وجيرانهم ضئيلة غالباً وواهية جداً أحياناً. وثانياً وأهم من ذلك أنه ما دامت الدماء الأجنبية الغريبة قد غزت اليهود وداخلتهم ـ حتى ولو كانوا من أصل فلسطيني قديم ـ إلى الحد الذي يقربهم ـ على الأقل ـ من هؤلاء الجيران، فقد ابتعدوا وانفصلوا تماماً عن ذلك الأصل السحيق.

وليس من المتصور ـ أليس كذلك؟ ـ غير هذا بعد نحو ألفي سنة من التشتت والاختلاط، لا سيما إذا تذكرنا ـ وهو اعتبار هام للغاية ـ أن كل قوة يهود الشتات حين خرجت من فلسطين بعد هدم الهيكل الثاني لم تزد عن 40 ألفاً! وهذا الرقم وحده يكفي ليوحي، رغم كل قيود العزل والاضطهاد، بأن يهود الشتات الأصلاء قد ذابوا وانصهروا وضاعوا في محيط المهجر كقطرة في بحر، وأن يهود العالم اليوم في سوادهم الأعظم هم أجانب متحولون أكثر منهم يهوداً متجولين.

ماذا يتبقى فيهم إذن من بني إسرائيل التوراة أو من بني إسرائيل التوراة فيهم؟ إن من يمكن أن يعد منهم من نسل بني إسرائيل التوراة حقاً ومباشرة لا يزيدون على نسبة بالغة الضآلة إلى أقصى حد. مثلاً في أواخر القرن الماضي يجد الأنثروبولوجي المخضرم المعروف فيلكس فون لوشان Von

Luschan أنه "من بين يهودنا المحدثين نحو 50% عراض رؤوس، 11% ذوو بشرة بيضاء، وما لا يزيد عن 5% يتفقون مع ما عرفنا أنه النمط السامي القديم". وهذا يتفق تماماً مع ما تؤكده دراسة حديثة جداً قام بها في العام الأخير فقط أنثروبولوجي بريطاني هو جيمس فنتون على يهود إسرائيل توصل فيها إلى أن 95% من اليهود ليسوا من بني إسرائيل التوراة، وإنما هم أجانب متحولون أو مختلطون.

ولئن صح هذا ـ ولعله صحيح، وهو بالتأكيد أقرب إلى الصحة والمنطق من تخمينات كون ـ فمعناه أن الصلة الجنسية والجينية بين يهود اليوم ويهود التوراة منبتة وفاقدة تماماً من الناحية العملية، وأنهم بالفعل أوربيون سلاف أو آريون أكثر منهم ساميين. وهذا يصدق على الأشكنازيم في أوربا، وعلى امتدادهم الأمريكي الذي زاد اختلاطه في البوتقة الأمريكية، أكثر منه على أية مجموعة أخرى من اليهود، مع ملاحظة أنهم ـ الأشكنازيم ـ هم السواد الأعظم من يهود العالم عددياً.

والخلاصة الموضوعية أن يهود العالم اليوم مختلطون في جملتهم اختلاطاً بعد بهم عن أي أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة حتى لم تعد هذه تمثل في تكوينهم إلا قطرة في محيط. وإذا كان ثمة تحفظ ما، فهو أن هناك مراحل ودرجات من هذا التخليط، فبعض المجتمعات اليهودية كيهود التركستان أقل تهجناً وتخلطاً والبعض أكثر كالأشكنازيم. غير أن الحقيقة الحاسمة والفاصلة هي أن الأقل تخليطاً إنما يمثلون عددياً نسبة بالغة الضآلة من مجموع اليهودية العالمية، بينما أن المخلطين تماماً والذين ابتعدوا جداً أو كلية عن الأصول

الأولى يشكلون الأغلبية الساحقة منهم. ومن هنا فلا جناح علينا إذا نحن قررنا في النهاية أن اليهود اليوم ليسوا من بني إسرائيل، وأن هؤلاء شيء وأولئك شيء آخر أنثروبولوجياً، وألا رابطة بين الطرفين إلا الدين والدين فقط.

أفكار خاطئة

وتخريجاً من هذا وترتيباً عليه، تسقط على الفور عدة أفكار ومعتقدات شائعة ومتفشية ولكن لا ظل لها من الحقيقة في نظر العلم الصحيح. فأولاً، ما دام اليهود لم يعودوا من الساميين في شيء، فيمكننا هنا أن نرى الخطأ الشائع الفاشي، إن لم يكن المغالطة الكبرى العامدة، في تسمية اضطهاد اليهود "بضد السامية"، فنحن في الحقيقة إزاء "ضد اليهودية" ببساطة وبلا تعقيد.

ولا تفسير لهذه التسمية الخاطئة إلا أنها تعتمد على أسس الإنجيل والتوراة التي تسبق بكثير التغير الجذري والإحلال والإبدال المطلق الذي لحق دماء اليهود. والاضطهاد النازي لليهود في ألمانيا لم يكن في جوهره إلا اضطهاد ألمان لألمان، لا يقل معظمهم عنهم في الآرية والنوردية، وإنما يختلفون فقط في الديانة وطريقة الحياة.

يسقط كذلك ببساطة وتلقائية أي دعوى قرابة دم بين العرب واليهود: قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ـ وإنما تاريخنا فحسب حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين وحين كانت العبرية لغة تشتق من

الأصول العليا التي تفرعت عنها العربية، وقد يكون من الصحيح، بل أنه لصحيح بالفعل، أن إسماعيل أبا العرب وإسحق أبا اليهود أخوة غير أشقاء وكلاً ابن إبراهيم ـ ولكن في البداية فقط تصدق هذه الأخوة على تسليمها، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما في دماء غريبة ووصل الذوبان إلى حد الإحلال حتى أصبحنا إزاء قوم غرباء لا علاقة لهم البتة بإسحق فضلاً عن إسماعيل. ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوارة كشبح أن يكون يهود أوربا والعالم الجديد أقارب العرب جنسياً أكثر من قرابة الأوربيين والأمريكيين للعرب! وغير هذا ـ حتى لو قال به ملوك العرب ابتداء من فيصل بن الحسين إلى فيصل آل سعود ـ ليس إلا من قبيل أوهام العوام بل جهالات الملوك!

إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوربيين والأمريكيين، بل هم في الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة، لحماً ودماً، وإن اختلف الدين. ومن هنا فإن اليهود في أوربا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون في المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلاً وسلالة، لا يفرقهم عنهم سوى الدين. أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء في منفى ودخلاء بلا جذور فذاك في بيت العرب وحده، في فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم إلا أن يكون استعماراً واغتصاباً بالقهر والابتزاز. وغير هذا قلب بشع لحقائق التاريخ أنثروبولوجياً وغير أنثروبولوجي.

وانطلاقاً من هذا يسقط كذلك أي ادعاء سياسي للصهيونية في "أرض الميعاد". فبغض النظر عن أن القانون الدولي يتكفل بشجب وتفجير ادعاءاتهم على أي أساس تاريخي أو ديني، فإن الأنثروبولوجيا تبدد أي أساس جنسي قد يزعمون في هذا الصدد. فمن ناحية ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة، بل هم مجرد طائفة دينية تتألف من أخلاط من كل الشعوب والقوميات والأمم والأجناس. ومن ناحية أخرى فلا علاقة لهم جنسياً أو أنثروبولوجياً بفلسطين، وهم أجانب غرباء عنها دخلاء عليها مثلما يعد الأوربيون أو الأمريكيون بالنسبة إليها.

وهم حين يغتصبونها ليخلقوا منها إسرائيل الصهيونية، فليست هذه عودة الابن القديم بعد رحلة طالت عبر الزمان والمكان، وإنما هي غزو الأجنبي الغريب بالإثم والعدوان.

أيضاً وفي النهاية أن نرفع نغمة حذر أو تحذير حول قضية وتداعياً وانطلاقاً من هذا الانتهاء الأخير، ينبغي.

ليست هي القضية الفلسطينية ولكنها تشبهها أو بالأحرى تشبه بها، ونعني بذلك ما يسمى دعوة "الصهيونية السوداء". فالأخوة الإفريقيون في صحوة نهضتهم الحديثة قد وجدوا ـ كإرث من عصر الرقيق ـ قطاعاً منهم خارج أفريقيا في العالم الجديد يعيش في أدنى السلم الاجتماعي وتحت ضغوط التفرقة العنصرية الضارية. ومن ثم نادى بعضهم ـ جارفي والجارفية Garvey ـ بالعودة إلى أفريقيا الأم كحل لمشكلتهم في أمريكا. وبغض النظر

هنا عما لاقته الدعوة عملياً وفكرياً من فشل أو معارضة، فقد كان أثيراً لدى أصحابها تشبيه الموقف بموقف الصهيونية: فجعلوا تهجير الرقيق الإفريقي إلى العالم الجديد هو "الخروج الأسود Black Exodus" و"الشتات الإفريقي A.Disapora"، وجعلوا أفريقيا الأم هي "أرض الميعاد" و"الوطن القومي" ورؤيا العودة هي "الصهيونية السوداء"...

والذي يعنينا ها هنا ليس الحكم على الدعوة أو لها، وإنما أن ننبه أصدقاءنا الأفريقيين برفق إلى خطورة وخطأ التشبيه. فإذا كان زنوج أمريكا هم فعلاً وحقاً من سلالة أفريقيا، فإن الأغلبية الساحقة من يهود عالم اليوم ليسوا من بني إسرائيل أو سلالة فلسطين في شيء. وإذا كان لزنوج أمريكا نظرياً حق تاريخي وجنسي في العودة إلى أفريقيا، فليس لليهود مثل ذلك الحق بتاتاً بالنسبة إلى فلسطين. ومن ثم فلا مجال ولا وجه للتشبيه بالصهيونية. بل إنه لتشبيه يسيء إلى فكرة العودة الأفريقية أكثر مما يفيدها.

والصهيونية من جانبها تتلقف هذا التشبيه لتتقرب به إلى زنوج الولايات المتحدة والعالم الجديد وتستدر عطفهم المخدوع على حركتهم العادية الغاصبة. إنه إذن تشبيه غير موفق، وهو غير صحيح إلى ذلك وقبل ذلك، ومن الخير لأصدقائنا الأفريقيين وخير قضيتهم وقضيتنا معاً أن يسقطوه والفكرة الخاطئة التي تكمن خلفه.

المصادر

- w.Z. Ripley, the Races of Europe, Lond., 1900.
- C.S. Coon, the Races of Europe, N.Y., 1939.
- Julian Huxley. A.C. Haddon, A.M. Carr- Saunders, We Europeans, Peuples, Paris, 1926.
- Egon E. Bergel, Urban Sociology, Mc Graw- Hill, 1955.
- Ellsworth Huntington, Palestine and its Transformation, Boston, 1911.
- The Pulse of Progress, N.Y., 1926.
- Mainsprings of Civilization, N.Y., 1945.
- C.S. Coon "Have the Jews a Racial Ident, ity", in Jews in: a Gentile World, ed. Graeder & Britt, N.Y., 1942.
- Y.M. Goblet, Political Geography and the World Map, Lond., 1955.
- A.C. Haddon, The Races of Man, Cambridge, 1924.
- M.F. Ashley Montagu, Introduction to Phy- sical Anthropology, Springfield, 1951.
- Walter Fitzgerald, the New Europe, Lond., 1946.
- Adolphe Landry, Traité de Démographie, Paris, 1949.
- W.F. Ogburn, M.F. Nimkoff, A. Handbook of Sociology, London., 1953.
- P. Sorokin, Contemporary Sociological Theor- Holy Land, N.Y. 1932.

ـ نجلاء عز الدين: العالم العربي، القاهرة (مترجم).

ـ جمال حمدان: المدينة العربية، القاهرة، 1964.

المحتوى

لماذا هذا الكتاب الأن ..؟/ تقديم ديب علي حسن.....5
اليهود أنثروبولوجيا 15
في التاريخ القديم.....20
الشتات
الشتات البابلي.....26
الشتات الهلليني.....29
الشتات الروماني والوسيط.....31
الشتات الحديث.....38
طوائف ثلاث 42
توزيع اليهود في العَالم.....44
طفيليات المدن.....58
مجتمع الجيتو.....62
الأصل الجنسي لليهود 64
صفات اليهود الجسميّة.....70
نقاوة أم اختلاط
يهود تأوربوا أم أوروبيون تهوّدوا؟.....82
أدلة الاختلاط التاريخية.....88
أفكار خاطئة 103
المصادر 107

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم	اختيار	السنة
162	أبو الطيب المتنبي حياته وشعره	فلك حصرية	فلك حصرية	2021
163	آرائي ومشاعري	أ.عيسى فتوح	أ.عيسى فتوح	2021
164	ومضات (شذور وأمثال)	أ.سهيل الشعار	أ.سهيل الشعار	2021
165	الثورة رواية اجتماعية قومية	أ.د. فاروق اسليم	أ.د. فاروق اسليم	2021
166	الصعود المتعثر نحو الأمل	فلك حصرية	د. محمد الحوراني	2021
167	موسم الهجرة إلى الشمال	أ.سهيل الشعار	أ.سهيل الشعار	2021
168	المنسيون في التاريخ	فلك حصرية	فلك حصرية	2021
169	الحضور والغياب في المسرح السوري المعاصر	د. محمد الحوراني	اعداد د. إيمان تونسي محمد إبراهيم العبدالله ـ صباح الأنباري	2021
170	قصة الأرض	أ. ديب علي حسن	أ. ديب علي حسن	2021
171	زاهد المالح شاعر اللغة المرنيّة	د. نزار بريك هنيدي	د.نزار بريك هنيدي	2021
172	ثقافة الأطفال	فلك حصرية	فلك حصرية	2022
173	مختارات من روائع الثقافة والأدب	جودي العربيد	أ. سهيل الشعار	2022
174	نَفَثاتُ مَصْدورٍ وقصائدُ أخرى	ســـراج جـــراد	ســـراج جـــراد	2022

م	عنوان الكتاب	تقديم	اختيار	السنة
175	كوابيس بيروت	د. ماجدة حمود	د. محمد الحوراني	2022
176	ديوان إيليا أبو ماضي	صبحي سعيد قضيماتي	صبحي سعيد	2022
177	التذوق والجمال في كتابات الأشتر	د. عبد الكريم محمد حسين	د. عبد الكريم محمد حسين	2022
178	الشاعر المتنبي بين الشاعرين حامد حسن ورضا رجب	محمد خالد الخضر	محمد خالد الخضر	2022
179	مختارات من أشعار رسول يونان	حيان محمد الحسن	حيان محمد الحسن	2022
180	ضريبة اللباقة	د.نورا أريسيان	د.نورا أريسيان	2022
181	لغة العرب	ديب علي حسن	ديب علي حسن	2022
182	الباحثُ والمؤرِّخ الفُراتيّ عبد القادر عيّاش حياتُهُ وآثاره ويليه كتاب القمر في حياتنا وتراثنا	أ. سراج جَراد	أ. سراج جَراد	2023
183	أخلاق الأدباء أسمار وأحاديث	أ. فلك حصرية	أ. فلك حصرية	2023
184	صورة الآخر في التراث (نسخة معدلة ومختصرة)	د. ماجدة حمود	د. ماجدة حمود	2023
185	ما هو الشعر	سهيل الشعار	سهيل الشعار	2023
186	الشعر بنيةً وتشريحاً (تاريخ.. مدارس.. نقد..)	تأليف: حامد حسن		2023
187	في الميزان الجديد	أ.د. أحمد علي محمد	أ.د. أحمد علي محمد	2023
188	رباعيات أنور العطار	نزار بني المرجة	نزار بني المرجة	2023
189	هؤلاء علموني	جودي العربيد	سهيل الشعار	2023
190	فن الحرب /"الكتاب المقدّس للدراسات العسكرية"	عيد الدرويش	عيد الدرويش	2023
191	غسان كنفاني أدب المقاومة في فلسطين المحتلة	أحمد علي هلال	أحمد علي هلال	2023